رواية

عزبة الخواجة

محمد إسماعيل

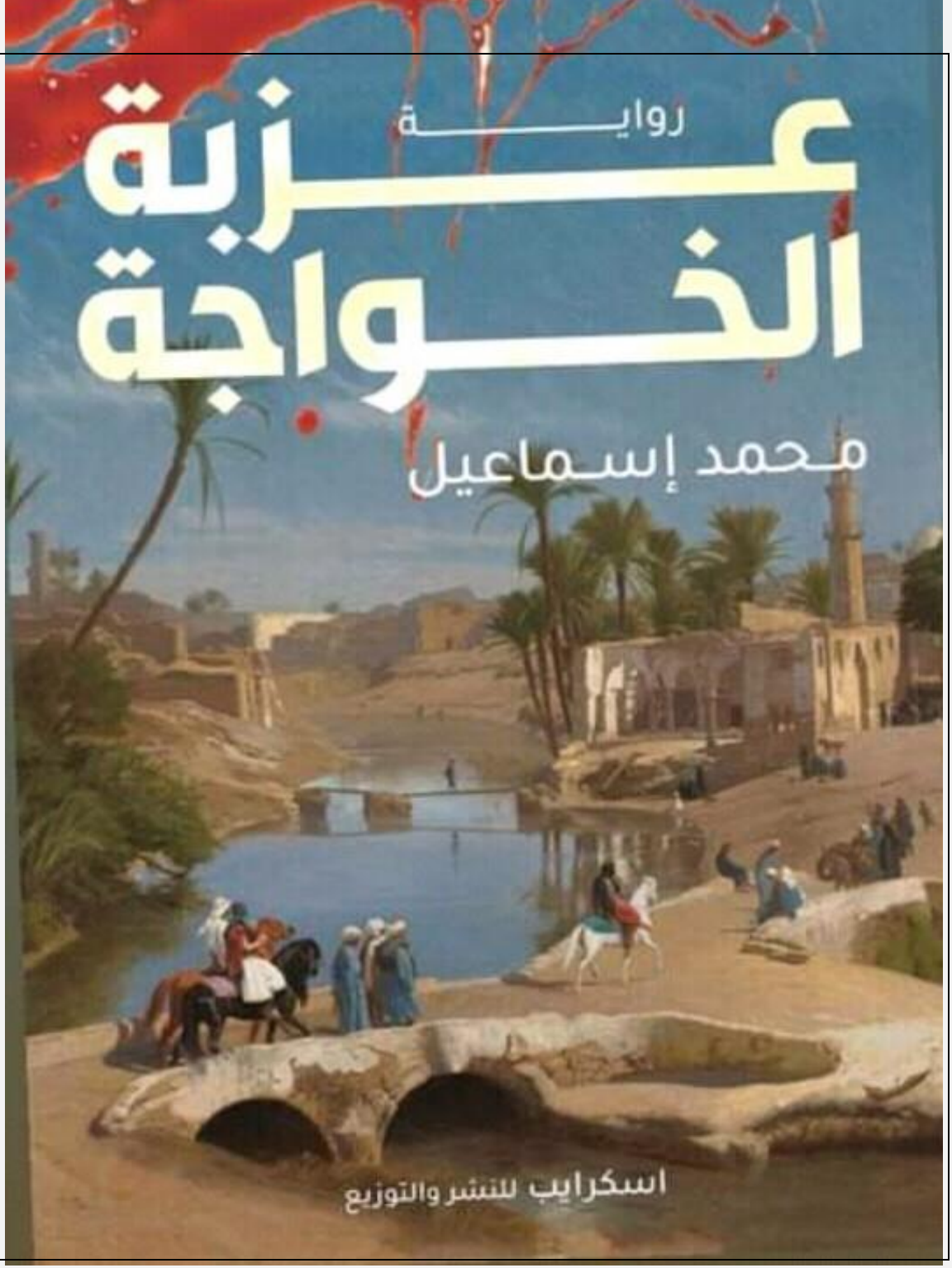

اسكرايب للنشر والتوزيع

حكاية قرية

اسـم الكتـاب : عزبـــة الخواجـــة

المؤلــــف : محمــــد إســــماعيل

[redacted]

رقــم الإيــداع : 2020 / 17716

الترقيم الــدولي : 978-977-85787-0-6

الناشــــــر : اســكرايب للنشــر والتوزيــع

002 01005079256

Scribe20199@gmail.com

scribe2019 – اسكرايب للنشر والتوزيع

scribe2019 – اسكرايب للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار اسكرايب للنشر والتوزيع

لا يحــق لأي جهــة طبــع أو نســخ أو بيــع هــذه المــادة

بـــأي شـــــكل مـــــن الأشـــــكال

ومــن يفعــل ذلــك يعــرض نفســه للمســاءلة القانونيــة

هـذه الروايـة تـم نشـرها لأول مـرة بواسـطة دار اسـكرايب للنشر عام 2021، وهذه نسخة منقحة بحذف بعض الأحداث من النسخة الأصلية وهي قرابة ثلاث فصول كاملة.

.....

إهداء

لريف مصر وفلاحيها بكل مكان .

.....

(عاش الفلاح في ذلته واستكانته، وألِف ظلمَ الحكام والسادة وقسوتهم، فصار الخضوعُ عادة له، لا من فقر بل من الظلم والقهر، يسومه السادة المتسلطون حكمَ الطغيان، ويعاملونه كطفل يؤمر وليس له أن يناقِش، حتى ألِف من الحكام جانب الشدة والقسوة؛ فأصبح لا يرى علاقته بمن هم فوقه إلا على هذا النحو، إذا وجد من بعضهم جانب اللين استنكره، ورآه شيئا يفوق ما ألِفه، أصبح لا يعرفُ الشفقةَ لقسوة ما لقيَ من الظلم والهوان، وما عومل به من السبّ والضرب والفظاظة.)

الأب هنري عيروط

.....

مدخل تمهيدي

قال لي جدي ذات مرة وقت أن كان يسرد لي حكايات القرية وأنا يافع:

هذه القرية نشأت كأي شيء له بداية ثم يمر بمراحل توسع وتطور، كانت عبارة عن بيوت بدائية تشبه الأكواخ المبعثرة، ثم مع الزمن صارت ثلاثة شوارع أساسية، منها تتفرع شوارع فرعية ضيقة، شارع الدكتور "سراج" على اليمين عند دخولك القرية بجانب مزارع الفاكهة التي يمتلكها بالإضافة إلي عشرات الأفدنة، وشارع سرايا الخواجة علي الشمال على حافة أرضه التي تقدر بخمسين فدانا، وشارع

وسط القرية مُوصِّل إلي الجهة الغربية تجاه الأراضي في الزمام الغربي والتي يمتلك فيها أيضا الدكتور "سراج" والخواجة وبعضُ الفلاحين عدة أفدنة أيضا، ومِن هذا الطريق تستطيع أن تصل لمحطة القطار، وقد نشأت القرية في العهد الملكي على يد عمَّال الترحيلة الذين كانوا يُدفعون من قِبل العُمَد والمشايخ للعمل في تلك المزارع التي يمتلكها الذوات وكذلك الأوروبيون الذين كانت لهم أملاك كثيرة، وآخرهم الخواجة "سمعان" الذي ورث عن والده الخواجة"بطرس ألفونس" تلك الأملاك، ومنها السرايا الخاصة به على مدخل القرية والتي يسكنها الخواجة "سمعان " حتى الآن، وسُمِّيت القريةُ باسمه منذ أن كانت عزبة صغيرة وأطلق الناس عليها عزبة الخواجة نسبة للخواجة "بطرس"، وعلى الرغم من أنها مسجلة بهيئة المساحة باسم آخرَ إلا أن الاسم الحالي (عزبة الخواجة) لازال عالقا بأذهان الناس وعلى ألسنتهم، كان الخواجات

الأجانب يأتون لمصر من بلادهم للتجارة والعيش فيها منذ القدم، غالبهم من اليهود، وكانوا يشترون لهم البيوت والأراضي بالقرى، منهم من يقيم بالقرية ومنهم من كان يمارس تجارته بالعواصم والمدن الكبرى، فارتباط الخواجات بمصر كان منذ ارتباط اليهود بها ويرجع ذلك لعصر الإمبراطورية الإخمينية في القرن الثالث قبل الميلاد، وفي هذا الامر تفاصيل كثيرة تتعلق بعلاقة اليهود بمصر على مر العصور والتاريخ،تتقلب فيها بين الصداقة والتعاون والعداوة والحروب، المهم أن الخواجة"سمعان" ورث من والده تلك السرايا والأراضي التي تقدر بعشرات الأفدنة، وتطورت القرية خصوصا في أواخر العهد الملكي وبدايات حكم"عبد الناصر" قبل أن توجه الدولة كل الدعم للجيش على إثر الحروب التي قامت، ومن ثم فقد عادت تلك الظروف السياسية على القرية وغيرها من القرى بالإهمال وهذا بعد اعتناء أسرة " محمد علي باشا" بالقرية عموما

حيث شق لأجلها الترع والمصارف للاستفادة من مياه النيل، ونذكر ما قام به "سعيد باشا" الملقب بصديق الفلاح تجاه القرى من إصلاحات، وعلي الرغم من أن الملك "فاروق" عام 1948 عمل على توزيع ملكيات زراعية علي الفلاحين وجعل ستمائة أجيرا من الفلاحين يصبحون مُلاكا بمنح كلٍ منهم خمسةَ أفدنة وبيتا صحيا وجاموسة، وهذا الإجراء بعد دراسة للموضوع الذي استغرق عاما كاملا.، خَطَب "مكرم باشا" و "عثمان بك" بالراديو ليعلما الناس بالخطط الإيجابية وطرق التنفيذ بداية من قرية كفر سعد وكان ذلك عام 1944م، إلا أنها كانت محاولة محدودة، ثم أراد بعد ذلك الرئيس"جمال عبد الناصر" أن يعمل على توسيعها بتطبيق قانون الإصلاح الزراعي وهذا بالطبع بعد أحداث يوليو عام 1952، وهنا كان السبب الرئيس في توسعة حصلت بالقرية_عزبة الخواجة_ وذلك لمّا هبّ الفلاحون من كل مكان إليها، وبنوا لهم دورا وتملكوا فيها وحازوا على قطع

لا بأس بها من الأراضي الزراعية...

واستأنف يقول:

لقد تغيَّرَت طباعُنا وأشكالُنا وقلوبُنا، وهذا سببه أن الناس قد انقلبوا على العادات والتقاليد الريفية وقلَّدوا أهل المدن في كل شيء، وبدأ الشباب يهجرون القرية إلى المدينة طمعا في العمل مستفيدين بالانفتاح الحاصل في عهد السادات، وزادت الفئة المتحضرة بينما أخذت الفئة الريفية القروية تتضاءل، وتسبّب ذلك في بناء العشوائيات بالمدن وبدأت تتغير معالم كثيرة، وكان ذلك في السبعينيات، لقد ترك الكثير من الشباب الحقل وذهبوا للمدن طلبا للعمل المناسب لهم ولشهاداتهم كما يقولون، ويشتغلون بالحرف اليدوية والوظائف والتجارات وغيرها، وأهمِلت القريةُ بإهمال الزراعة مع الوقت، فعلوا مثلما كان يفعل الفلاحون الضعفاء أيام الملكية، إذ كانوا يتسحّبون من أراضيهم للعمل عند الذوات والأوروبيين طمعا في الحماية من بطش العمدة وشيخ البلد، فيضم العُمَد

والمشايخ غالبا تلك الأراضي التي كانت بمساحات ليست كبيرة إلى أملاكهم ليعمل بها عمال اليومية من المزارعين، كانت كلمة العمدة وشيخ البلد نافذة على الجميع بلا نقاش، ويعتري الفلاحين بين أيديهم من الوجل والقلق والخضوع ما يعتري العُمد والمشايخ أنفسهم في حضرة البهوات، فالعمدة وشيخ البلد أذلاء أمام البيه المأمور لكنهم فراعنة على الفلاحين، يسومونهم أنواع الظلم والبطش. ،كان الفلاحون هم القرابين التي تقدَّم عقب أي قرار اقتصادي، وعزبة الخواجة هذه واحدة من القرى بمصر ولذا ستدور الأحداث فيها مع استضافة بعض الشخصيات من أبنائها.

سألت جَدي:

لقد قلتَ لي في سياق الحديث ياجدي أن هناك عقوبات كانت تُوَّقع على العمد والمشايخ من المسئولين، لماذا لم يشتكِ الفلاحون سوء معاملاتهم ويأخذون في الخنوع والاستسلام هكذا؟

أجاب جدي بالأمثلة ليوضح لي جانبا من واقعهم الاجتماعي فقال:

القنصل البريطاني كتب تقريره عام 1879 وقال فيه:

{إنني أسمع من مصادر مختلفة أن الطغيان والظلم الذي يعاني منه الفلاحون على أيدي العُمد والمشايخ قد وصل إلى أن بعض الفلاحين كانوا يتركون ما في أيديهم من الأراضي القليلة ليصبحوا عمالا عند الأوروبيين طلبا للحماية}

وعلى مثل تلك التقارير كان يعاقَب المشايخ والعمد في عقود مختلفة،

فكما تقول المصادر في تاريخ مصر الاجتماعي أنه في عام 1897م شهِد عمدة قرية المطرية بمحافظة القليوبية على بيع أرض تمت بين أحد الأعيان وبين أحد أبناء القرية، لكنه شهد مرة أخرى على بيع نفس الأرض لآخَر، وذلك بقصد التربح كسمسار، ولما وصل الأمر للمديرية قاموا بالتحقيق معه ثم

عزلِه من منصب العمودية..

ولمَّا نعود للوراء في عهد الخديو "عباس حلمي" عام 1895م نعرف أن الإنجليز هم من أمروا بإيجاد مرسوم لتعيين العمد والمشايخ من قِبل المديريات والتي كانوا يُحكِمون قبضتهم عليها، بل كانوا يكتبون التقارير في العمد والمشايخ ويعزلون من وجدوه مخلا في عمله الذي يُملونه عليهم وبالتالي يُعيِّنون مكانهم مَن كان لهم وليا مخلصا مقابل أجر زهيد كمكافآت، وكانوا يشترطون أن يكون العمدة وشيخ البلد لديهم دخولا ثابتة لضمان الإنفاق على أنفسهم وذويهم منها، وأيضا أن يكون بحيازتهم بعض الأملاك.، ثم مع مرور الزمن بدأت تتقلص صلاحيات العمدة وشيخ البلد حتى أصبح في الألفينيات مجرد منصبا شرفيا هلاميا بكثير من القرى وليس كما كان بالسابق، وليكن بمعلوماتك أيضا بأن منصب العمدة حديث عن منصب شيخ البلد، فشيخ البلد منصب موجود من أيام الفراعنة.

:ماذا عن عزبة الخواجة؟

:عزبـة الخواجـة بهـا حـوالي أربعـة آلاف وسـتمائة وخمـس وسبعين نسمة، بهـا مدرسـة ابتدائيـة وأخـرى إعداديـة ومقهـى هـي الأقـدم وتعـد مـن تـراث القريـة والفلكلـور الخـاص بهـا وبسكانها وهي مقهى"رمضان القناوي"

بعـد تلـك التوطئـة هيـا بنـا لـداخل الروايـة ونعـيش أحـداثها لنتعرف على شخصيات ومظاهر وأساليب خاصة بها.

وكأن الحب مثله مثل الديمقراطية التي يتحدثون عنها بأن لها أنياب، نعم الحب له أنياب تقتل، كثيرون هم الممضوغون بأنياب الحب في هذا العالم، وإذا جاز أن يكون الحب سببا في القتل والموت بشكل مباشر أو غير مباشر فمن الأسهل أن يُحوّل حياة الناس للضد سلبا وإيجابا،

وعلى هذا فإن شدة حب "عبد اللطيف" ل"سناء" جعله يسوق على أهلها طوبَ الأرض كي يحظى بها زوجة، لكن محاولاته كثيرا ما باءت بالفشل؛ لأن "سناء" لم تكن تحبه ولم ترغبه زوجا أبدا، ودائما الرفض غير مبرر أمام والديها؛ فيعود ذلك عليها بقسوة الأب "جابر" وتسلطِه، سيما أنه يرى بأن "عبداللطيف" رجل كفؤ، أي نَعم كان يكبرها بعشر سنوات وهي لا تزال في السابعة عشرة لكن ذلك ليس سببا مقنعا للرفض عنده، كما كان من عادات القرية أن السن

لا يهم، ولكن يهمهم أن يكون الرجل"مَلوْ هدومه" حتى وإن كان يكبر البنت بعشرين سنة!

"سناء" التي تتمتع بجمال ريفي جذاب تحب ابن خالتها في السر، هي بالأساس لم تعرف بهذا السر إلا من قريب، أعجبها "حسين" ابن خالتها المتعلم (المِستَنْوَر) على حد تعبير أمها دائما، فهو شاب يبلغ من عمره اثنين وعشرين سنة، له عضلات مفتولة يعود فضلها لعلب السمن الفارغة، والتي كان يملؤها بالخرسانة ويجعل لها يدا حديدية تتصل بها من طرفيها، كان هو وأصحابه القلائل يمارسون رياضة كمال الأجسام بقليل من المعرفة وكثير من الشغف، لكن لم يمنع ذلك من تحسين بِنيتِه وجعلِه يبدو كممثلي هوليود، مركز شباب القرية مهجور لا يَفد إليه سوى الحشرات والقوارض والكلاب الضالة، ولعل تميز "حسين" عن شباب القرية العاملين بالنهار النائمين بالليل كالمغشي عليهم من الموت هو ما أسكنه بقلبها، لكنْ ثم هاجس لا زال يراود

"سناء" كثيرا ويسبب لها القلق الشديد كلما استغرقت فيه، وهو أن "حسين" شاب متعلم بينما هي لا تعرف تمييز اسمها المكتوب، فهل يتزوجها يوما كعادة أبناء القرية الذين يتزوجون من الأقارب بلا اعتبارات كهذه؟، أم أن "حسين" سيكون مختلفا في ذلك كما هو مختلف في أشياء كثيرة!

يعجبها فيه رزانته ومِشيتَه، فحين يَمر من أمامها تشتعل نار الحب بقلبها وتنتفض، تتساءل: ما هذا الشعور اللذيذ الغريب؟.

كانت تحب رؤيته مرتديا الجلباب الأبيض، الناصع بياضه والمناسب لبياض وجهه ولحيته القصيرة المحددة المرسومة كحاجبيه، طولُهُ في طولها المتوسط، بينما هي فرنسية القوام، طويلة الشعر، سوداء العينين، شفاهها المقوسة الحمراء كحبات الكرز تجذب إليها أي مزارع يجيد نثر البذور وحصد الثمار المستوية حين تأذن بالاقتطاف، هذا هو

سر تعلق "عبداللطيف" وجعله متيما بها، لكن مع ذلك إلا أن أنفها الحاد المدبب حارسٌ شهم على تلك الشفاه، يأنف أن يترك الساحة لأي مقاتل إلا لو كان مرغوبا في قتاله، أو في قتاله مجدٌ وشرف أيا كانت النتيجة، ومع أن "عبداللطيف"مِن أصل طيب بالقرية ويمتلك بعض الأفدنة، ومحط انجذابِ وتطلعِ كثيرٍ من بنات القرية إلا أن عينه لا زالت شاخصة تجاه "سناء"، وكان يثير حفيظته ويحِكُّ كرامته بعنف أن يكون على هذا النحو غير مرغوب لفتاة بالقرية، فيقرر تحت وطأة الغضب والاستفزاز أن يعود لطلبها كل مرة، وهي ترفضه بدورها كل مرة، يتطلع هو إليها وتتطلع هي إلى ابن خالتها، بينما ابنُ خالتها ليس واضحا فيما يتطلع إليه.، لقد فكَّرَت في ذلك كثيرا، ولذا قررت بأن تعترف له لتبدأ أو تنتهي القصة، لكنها كانت تخشى النهاية التي تُمثل لها ما يكون مثل الموت، لذا تتردد وتتردد، ثم تقرر، ثم تتردد، تقف "سناء" أمام المرآة لتنظر

لنفسها متذكرة كلمة جدتها:(كبرتي ياسناء وخرطك خراط الصبايا) .

فتبتسم، وترجو يوما تراه بعيدا رغم أنها ترى "حسين" كل يوم قريبا منها، فهو ابن خالتها والدار بجوار الدار!

أما" عبد اللطيف" فهو العزول الذي يهدد حبها اللذيذ، والذي على ما يبدو أنه من طرف واحد، ف"حسين" لم يعترف لها بشيء، لكنها تخمن حُبَّه المستور غيرَ المعلَن، والوقت ليس في صالحها مع إلحاح "عبد اللطيف" ورغبة أهلها، ولذا فقد قررت المواجهة والاعتراف.

يوم الجمعة جلست النساء متجمعات ببيت "أم حسين" خالة "سناء" وكانت مع أمها إذ هناك يوم طويل يخبزن فيه ويصنعن الطعام بمساعدة بعضهن كعادة نساء القرية، ولما سنحت الفرصة بعد سنة من الحب المحتجَب تجرأت "سناء" ضاربة بكل الأعراف والتقاليد عرض الحائط لتعترف بحبها

ل"حسين" قائلة له وقت أن علا وجهها اللون الأحمر، وهي ترتجف:

حسين، كنت أريد أن أفاتحك بموضوع لكن...

: قولي يا سناء، لا تترددي، ما الأمر؟

:أنا، أنا، أريد أن أعترف لك بشيء بداخلي لكن، لكن، لا أستطيع، لساني كأنه...، آسفة، أنا سأتجرأ و لابد من ذلك، حسين أنا...

يقاطعها، وهو يفهم منذ فترة ما بداخلها لكنه غير مبال بتلك المشاعر التي لا يهتم لها مطلقا، فليست لديه رغبة في إطلاق مشاعره الطفولية العذراء الآن، ربما لم تحن الفرصة والوقت المناسب، يقول لها ليقطع عليها الحرج الذي يؤلمها:

اسمعي ياسناء، أنا وأنت تربينا صغارا مع بعضنا ببيت العائلة، لذلك أراكِ أختي التي لم تلدها أمي، صدقيني ياسناء

ليس عندي أي مانع من أن يميل قلبي لكن لابد أن يكون ميلا عظيما، ليس ميلا عشوائيا يكلفنا كثيرا ياسناء، أنت تعلمين أن الناس بعزبة الخواجة يتزوجون من أقاربهم ثم يشتكون كثيرا من هذا، وتحدث المشكلات التي بها تتقطع الأرحام، هل تعلمين بأن قطع الرحم يستوجب اللعنة من الله؟

هكذا سمعت الشيخ "ربيع" يقول بالخطبة وكان يشدد على صلة الرحم، أنا وأنت أبناء خالة لا يجب أن نتسبب لأمهاتنا في مشاحنات بعد حين، المهم أنا أعرف مشاعرك منذ فترة طويلة، تفضحها نظراتك وابتسامتك كلما رأيتني، أعتقد ياسناء بأننا نحتاج للتعقل، هناك أشياء مهمة أهم من الحب، أنا على سبيل المثال متعلم، معي دبلوم زراعة، يعني مفترض أشتغل مشرفا زراعيا كبيرا، المستقبل ليس بعزبة الخواجة ياسناء ولذلك السفر للخارج هو أملي الوحيد الآن، لا أعرف هل تعلمين هذا؟

أقصد بأنني لا أفكر بالزواج حاليا...

قاطعته متلهفة: حسين أنا مستعدة أنتظرك ولو بعد حين

: يـا سـناء أنـا لا أحـب زواج الأقـارب، ولا أحـب خـوض التجربة،لي أصحاب يندمون من كثرة الخلافات...

قاطعتـه وقالـت: الخلافـات موجـودة بـدون زواج الأقـارب يـا حسين!

: لكن الخلافات بين الأقارب تكون أسوأ لأنـه يترتـب عليها قطع الرحم وهذا أشد من قطيعة تحدث بين النـاس الغربـاء الذين لا رحم بينهم، صدقيني ياسناء أنت تستحقين كل الحب لكن...

:لكن ماذا يا حسين؟

(قالتها وهي تبكي وتهطل دموعها منذ أول كلمة نطق بها)

قال :المهم يا سناء، أنا أريدك أن توافقي على "عبد اللطيف" أمـا أنـا فأمـامي سـنوات تنتظرنـي بالغربـة، سـوف أسـافر

بالخارج،ثم حين أفكر بالزواج فلن أتزوج من عزبة الخواجة مطلقا..

انتهى الكلام الذي أصاب "سناء" بمقاتلها، وهرولت باكية لتدفس وجهها بوسادتها وتبكي،تفكر في وقت أن كانت طوال الليل ترتب الكلام الذي سيخرج منها لحبيبها لأول مرة، وتفكر في ردوده القاتلة التي أغلقت بوجهها باب الأمل وأنشأت باباً من الحزن والكآبة، أرادت "سناء" أن تبتدئ قصتها فكانت البداية هي النهاية، لقد امتصت الصدمة كل طاقتها وأصبحت لا روح فيها، الأشياء من حولها تسيل منها الكآبة والظلامية، فالحب من طرف واحد قاتل لا محالة وإن تأجل مشهد القتل!.

مرت أشهر قليلة، وبالفعل سافر "حسين" إلى السعودية، وسافرت معه أحلام "سناء"، وأصبح "عبد اللطيف" يطرق الباب مجددا لكنه في تلك المرة كان ثقيل اليد متسمرا كوتد،

ربما كان يفهم بأن وجود"حسين" بعزبة الخواجة يمثل الجبل الحائل بينه وبين "سناء"، الحب في عزبة الخواجة تفضحه الأسطُح، ولذلك عرف بحب "سناء" لابن خالتها، إذ كانت كثيرة الوقوف على السطح تنظر باتجاه طريق "حسين"، كانت لهجة "جابر" وزوجته على "سناء" تلك المرة صارمة إذ لا مزيد من الصبر، وبعد الإلحاح عليها لانتزاع الموافقة على "عبداللطيف" اضطرت لتهرب من كل شيء في كهف الاستسلام للأمر الواقع، حيث قد هوى صرحُ الحب الذي كان يمثل لها الهدف الغائي من وراء رفضها الزواج،

ولا زال أبواها يلحان عليها:

اسمعي يابنتي، أنت أساسا لا رأي لك، والصالح هو ما نراه، فأنت لا خبرة عندك ولا تفهمين الحياة، نحن لنا تجاربنا، عشنا سنين طويلة وسط التجارب وعندنا الخبرة، لذلك لابد من أن توافقي على "عبداللطيف" !

نظرت "سناء" لوالدها وأمها وسكتت غارقة في البكاء، قالت أمُها:

السكوت علامة الرضا

فانفجرت "سناء" قائلة: بل السكوت علامة استسلام وقهر.

صاح أبوها بوجهها بشكل فظ وأخذ يعنفها على كلمتها التي وجدها أكبر منها سنا.

ثم بالفعل، تم الزواج وتحققت رغبة "عبداللطيف"وقت أن فشلت "سناء" في تحقيق رغبتها، إنه الزواج بين رغبتين متنافرتين..!

على الرغم من رفض عمها "سليمان" هذا الزواج لكنها لم تتمسك به وبرأيه لعلمها برغبته في أن يزوجها لابنه"جمعة" والذي لا تطيقه، وتصفه بالسماجة والبرود لأمها: "جمعة" دمه أبيض مثل أمه، ولن يكون زوجا لي يوما ما.

تتفق رغبتها في هذا مع رغبة أمها التي تحب العمى ولا تحب "سليمان"، وهو خفير العمدة المقرب وصاحب الوشايات وأذى الفلاحين، وأيضا "سليمان" لا يحب "أم سناء"، وهو الأخ الشقيق لوالد "سناء" لكنه يصغره بست سنوات، ولم يكن محبوبا غالبا من الفلاحين بالقرية لتسلطه وتجبره عليهم، فكان كلما وجد جماعة من الفلاحين ملتفين حول بعضهم تنحنح وزمجر وسعي لفض جَمعهم وكأنهم يفعلون شيئا منكرا لا يُغفر، كان يتخذ من كراهية أهل القرية طريقا للوصول إلى قلب العمدة وشيخ البلد، فينظرون له على أنه لا يجامل أهله، ويُنفذ عمله على وجه الجد، وهذا سبب كراهية الفلاحين له.،

"عبد اللطيف" متأصل في القرية وعنده أرض، ولا يعمل بالأجرة ككثير من الفلاحين، ولم يطعن في أخلاقه أي أحد، وهذا هو السبب والمؤهل لموافقة أهل "سناء" على الزواج، لم يكونوا يهتمون بالصحة النفسية والسلامة الشخصية،

يكفيهم السيرة الحسنة وأنه ليس مجنونا، والجنون عندهم هو الشكل النمطي المعروف بعطب الدماغ، والذي يجعل الشخص يهمل مظهره لا يدرك ما حوله، تماما كمجاذيب القرى المعروفين في كل قرية.

.....

مر عامان

تغيرت فيها تفاصيل كثيرة بالقرية، أنجبَت "سناء" ولديها التوأم من "عبداللطيف"، لكنه طوال السنتين لم يكُف عن حماقاته وغضبه المفرط، ولم يكن حكيما بما يكفي إذ كانت تلاحقه هواجس بدافع حبه الشديد لزوجته التي رفضته كثيرا، ويتذكر بأنها مجبرة عليه وليست راضية، ويظهر ذلك بوضوح في معاملتها معه والتي كانت بمبدأ "أهي عيشة والسلام"

الأمر الذي كان يجعل أعصاب "عبداللطيف" تفلت منه كما

كان يصف في كل مرة يجلس فيها مع أهلها للتحقيق، بالطبع بعد علقة ساخنة تفر بعدها "سناء" إلى بيت أهلها، وكل مرة يَعدُهم "عبد اللطيف" بأنه سيكف عن قسوته، لكنه يعود ولم يفِ بوعده، وعلى مدار السنتين حدثت بينهما الخلافات الكثيرة على أشياء بسيطة وربما لا وجود لها إلا في دماغ "عبد اللطيف" فقط، فكانت إذا صعدت "سناء" للسطوح لتنشر الغسيل كأي زوجة، يقوم بتعنيفها غِيرةً عليها خصوصا لو وجد أحد الشباب على سطح قريب أو بعيد، أو إذا ذهبت لشراء شيء من الدكان ينظر لثيابها ويتعلل بأي شيء يثير المشاكل بينهما، وربما الثياب عادي كأي ثياب تلبسه امرأة بالقرية، وكان يمنعها كثيرا من الذهاب لوالديها ويتعلل بأنه لا يحب أن يشغلها عنه أي أحد، حتى في المناسبات يفتعل معها المشكلات لتكون حبيسة الدار ولا تخرج منه، يعاملها كأسيرة ، وهكذا كانت سلوكياته ونفسيته، حتى اضطر العمدة "وهدان" للتدخل في المشكلة برغبة من

والدها وعمها "سليمان"

: اسمع يا عبد اللطيف، سناء لها عندنا معزّة خاصة، وتربَّت في بيتنا سنة كاملة تخدم فيها الست الكبيرة في مرضها الله يرحمها، ولو تكررت الشكوى ستندم عليها للأبد، انت فاهم؟

كانت هذه آخر مرة وبَّخ فيها العمدةُ "عبدَ اللطيف"، لكن لم يهتم بذلك وتجددت منه مشاكله مع"سناء" بشكل غير مبرَر، كانت نظراتها له وقت كان يكلمها بتسلط كفيلة بأن تفور بداخله البراكين لتزداد المشكلة وتتشعب بهما الأمور، ومع عدم التزام "عبداللطيف" من بعد تدخلات العمدة آلت الأمور لقرار الطلاق الذي طولب به"عبداللطيف"، وقد هاج وماج معترضا بدون جدوى، وقد غضب العمدة من فعله وكادت أن تقع مشكلة كبرى لولا تدخُل الخفير"خضر"_قريب عبداللطيف _ وقال له: طلِّقها طالما حكموا بذلك، ثم نستطيع نحن بعد أن تهدأ الأجواء أن نتدخل لمراجعتها، الأمر لن

يطول، أنت عليك حق والكل شهد ضدك، بالإضافة لكونك رفعت صوتك بحضرة العمدة وأصبح يحملها في نفسه، اسمع الكلام قبل أن تفقدها للأبد.

فكَّر "عبداللطيف" في كلام الخفير "خضر" ورآه عين العقل، وبالفعل طلَّقَها على أمل الخروج من موقف محتدم، ولا سبيل لتهدئة الأوضاع معهم، سيما الخفير "سليمان" _عم سناء_ كان قد توعد بأنها لو عادت معه لبيته ستكون بالقرية جريمة على حد قوله!

في البداية كان والد "سناء" ووالدتها يقنعانها بالعيش وأن الحياة الزوجية بها الكثير وأنها لم تنضج بعد ولم تفهم طبيعة المرحلة، ويقصون عليها حكاية فلانة التي كانت تلقَى من زوجها فلان كل أنواع العنف والقسوة، ومع ذلك تحمَّلت من أجل عيالها ولئلا تصبح مطلقة يلفظها الناس، لكن مع المحاولات الفاشلة وازدياد "عبد اللطيف" في قسوته الغير

مبـــررة وتـــدخلات "ســـليمان" آلـــت الأمـــور لاستســـلام "عبداللطيف" للطلاق كما استسلمت هي من قبل لرغبتهم في تزويجها له، في كل مرة كانت تشعر مع توجيهات والديها بالخيبة لأنهم يحاولون إقناعها بخلاف ما تريد، وبعكس ما تشعر به، وأن الأمر ليس بتلك السطحية الفارغة، لكن الحياة من خلال تجربتها تبدو كعقوبة على جناية الزواج لا يشعر بها أحد سواها، فهي تشعر بقهر حينما يضربها بقسوة ثم يأتيها ليلا كعاشق مهووس لا يظهر منه الحب سوى في الليل أثناء علاقتيهما الحميمية، وأيضا كانت العلاقة بالسرير لا تخلو من عنف وقسوة لا تناسب رقة "سناء" وضعف بدنها النحيف، هذا الحب المزعوم من طرفِه سرعان ما ظهر أثرُه بعدما أصبحَتْ مِلكا له كما أراد، وكأنه صار يعاقبها على كل مرة رفضتهُ فيها بدلا من أن يزرع نفسه بقلبها بحسن الخصال وجَيد الطباع والأفعال، فكلما تذَّكر أنها كانت ترفضه يشعر بحنق، لقد أصابه الحب الجنوني المختلط

بالشك والهوس، ومن ضمن مظاهر هذا الهوَس عنده أنه ذات مرة سمع أغنية في الراديو يغنيها "عبد الوهاب" يقول فيها:

" أروح ادور على ماضي كان ليا فيهم حب زمان ...أشرب لوحدي كاس فاضي دايما بِفكر فيه مليان ..وافكر في اللي ناسيني وبنسي اللي فاكرني ...وبهرب م اللي شاريني وادور ع اللي بايعني"..

كانت تستمع لها وتدندن معها وهي تكنس الدار، فينصت "عبداللطيف" لكلمات الأغنية ويتذكر حبها لابن خالتها والذي تأكد به بعد ذلك فيظن بأنها تستحضره برأسها وتفكر فيه، فتغلي دماغه ويقوم ليحطم الراديو ويضربها بعنف غير مبرر، ثم بعدما يهدأ يسعى لمصالحتها ويتحول على النقيض تماما، لم تكن تفهمه وما عادت تشعر بالأمان معه، فصغر سنها يحول دون تحملها لشخصية كشخصية "عبد اللطيف"،

فليست امرأة ناضجة تستطيع التعايش بأي أسلوب يناسبه، لكنها كطفلة تنزعج وترتعد كلما رفع صوته وتراه أمامها كشبح مستبد لا كزوج!

في كل مرة كانت تحدث المشكلة يظهر الخفير "سليمان" ليؤنب أبيها وأمها على عدم امتثالهم لرأيه لمَّا كان يرفض "عبد اللطيف" ويقول لهما:

تحمَّلوا لأنكم لم يعجبكم كلامي في البداية، مشورة المرَة بتأخر سنين ياجابر، اشرب ياجابر، لم تصدقوني لما أخبرتكم بأنه غير مناسب لها وظننتم ظن السوء.

.....

يوم الجمعة

هو اليوم المفتوح المنتظر، فمِن الصباح الباكر يكون شباب القرية منهمكين في لعب الكرة ثم بعد ذلك يذهبون لصلاة الجمعة ليستمتعوا بخطبة الشيخ "ربيع"، والذي يتحفهم بأسلوبه ومواضيعه الشيقة والتي تمس أخلاقيات ومعاملات الناس بالواقع مع طرافته وأسلوبه الساخر، يوم الجمعة كان هو يوم الحِلاقة أيضا حيث حلاَّق القرية في ذلك اليوم يجز شعر نحو ثلاثين أو أربعين شخصا، الحلاق "أبو القمصان" الذي يجوب القرية طولا وعرضا حاملا حقيبة أدوات الحلاقة كبائع متجول لينادي عليه كل من أراد الحلاقة، فيُحول المكان الذي نودي منه إلى صالون حلاقة مؤقت، فتتجمع الأطفال لمشاهدته وهو يحلق للناس كما يشاهدون الحاوي، الحلاق "أبو القمصان" له عمل آخر بالقرية وهو إعطاء الحُقن للمرضى، وكذلك كتابة العقود بين الناس، لكنه أصبح منذ عدة أشهر قليلة لا يستطيع المشي كما كان بسبب

الروماتيزم، واتخذ من مقهى "رمضان" مكانا جاذبا للفلاحين ليضمن استئناف عَملِه بشكل طبيعي، لكنَّ المشكلة بعد ذلك أن "رمضان" بات يشعر بالضجر من تجمعات الفلاحين حوله ليحلقوا رؤوسهم ومن ثم تتطاير شعورهم بالمكان، وهو مكان ترفيهي نظيف على حد قوله، بالإضافة إلى أنه يحدث ضوضاءً هو وزبائنه بشكل موازٍ لضوضاء المقهى

يقول له: يابو القمصان هنا مكان أكل عيش وأنا مُحرَج منك، لكن لازم تقدرني، مكان أكل العيش لا يدخله إلا الزبائن ، وزبائنك كما لو كانوا بالسوق، مزعجون جدا، يحتلون الكراسي ويضيقون المكان على زبائن المقهى.

يغضب "أبو القمصان" ويقول له:

إذا كان على الحلاقة فأنا سأبحث عن محل صغير لاستقبال زبائني، لكن وقتها لن أجد أي وقت للذهاب لكل من يرسل

لي ولده ويطلبني لإعطاء أحدهم حقنة بالبيت،سواء طفل أو أحد من المسنين، حقي وحقكم يا رمضان، وأنا رجل أمشي بمشقة مثل حمار أعرج، أنا رجل مريض وقدماي تعبت من السير هنا وهناك وما عدت أستطيع، وأنت لم تتحمل ساعتين من نهار كل أسبوع، رغم أنك يارمضان أكثر من كان يبعث لي عياله لإعطاء والدك الله يرحمه الحقنة على مدار أشهر ليست قليلة بالليل وبالنهار، وفي منتصف الليل بالشتاء وتحت المطر كنت أهرول إليكم دون تأخر، والآن لم تتحملني وكأنني قطعت رزقك رغم أنه في السماء مقسوم!

شعر "رمضان" بالحرج الشديد وأخذ يلملم الموقف بكلمات يسترضيه بها ويعتذر له ويقول: خلاص حاول تمنع زبائنك من الضوضاء والهرج الذي يفعلونه، والمكان مكانك يا بو القمصان، لا تغضب.

كانت المقهى بالطوب اللبن وسقفها من الخشب والقش، منسوبها بمستوى الشارع،تكون بالصيف رطبة منعشة، بينما

بالشتاء دافئة كحمَّام، تجذب الزبائن من كل مكان بالقرية للتسلية واللعب وشرب الشيشة والمشروبات الساخنة، وكبار السن من الفلاحين يتبارون بالدومينو والطاولة، ولم يَخلُو المكان من صياح بينهم واتهام بسرقة اللعب، ويحلفون بكل شيء معبود وغير معبود على وجه الأرض، يستمتعون بمشاهدة الأفلام والمسلسلات، ويسمعون الأخبار من شاشة صغيرة ليس فيها إلا لونين فقط وهما الأبيض والأسود، كَلَيْلِهِم ونهارهم، التلفاز كان يعمل ببطارية سيارة متصلة به لتولد له الكهرباء حيث لا كهرباء بالمقهى، لأن القرية لم يكن بها كهرباء إلا في بيوت كبراء البلد فحسب، وكان الكابوس الأكبر عندهم هو أن تنفد البطارية وهُم يشاهدون فيلما وقت العصر أو مسلسلا وقت المغرب؛ لذلك تكثر تنبيهاتهم ل"رمضان" يوم الخميس ليشحن البطاريات استعدادا ليوم الجمعة _اليوم المفتوح_ يملؤها من عند"أبو رشدي"، هو واحد من عُمال الطاحونة، وأيضا كان يقوم بصنعة ملء

البطاريات، ولأنه يتغيب كثيرا بالنهار في الطاحونة فقد علَّم زوجته "أم رشدي" تلك الصنعة واستراحت بها من العمل كأجيرة في الحقول مع النساء، كانت أمنية الفلاحين هي توصيل الكهرباء للقرية، قال أحدهم :

كل دورة انتخابية تكثر الوعود بالكهربا، وكلام الليل مدهون بزبدة ولما يطلع عليه النهار يسيح، الكل منشغل بالمدن والعواصم ويهملنا كأننا لسنا تابعين لهم!

رد آخر باستياء قائلا: طالما أن الكهربا ببيوت كبراء القرية لا يهم بقية الناس، ربما بعد عشرين سنة كالعادة بين الوعود والتنفيذ!

: حتى عضو مجلس الشعب لا يظهر ولا نستطيع الوصول له، ولو ظهر بالمجلس على الشاشة فهو مجرد متفرج ومستمع فقط!

كانت اللمبات الزجاجية معلقة على الجدران متراصة قبيل

دخول الليل كما تتراص العساكر متأهبة لمهمة كبرى، نصف ساعة سيدور "رمضان" عليها ليشعل الفتيل بالنار كي يضيء المقهى، كانت اللمبات تشتعل بالجاز من خلال شريط من القماش المصنوع خصيصا بخاصية شعرية تمتص الجاز لأعلى ويظل مشتعلا من الطرف طالما أن القاعدة مليئة بالجاز، هكذا كانت ديار الفلاحين، الحرائق كانت تحدث كثيرا في عزبة الخواجة بسبب تلك اللمبات، ففي شهرين متتاليين احترقت بعض البيوت بسبب سقوط اللمبات كزجاجات المولوتوف حين ترتطم بالأرض ويختلط الجاز بالنار ليحرق الأشياء حولها، ولأن الأسقف من الخشب والقش فكان توصيل النار لأجزاء كثيرة من البيوت سريعا سهلا، كانوا يلاحظون اقتراب نفاد الجاز من القاعدة لمّا يرون لسان النار يتراقص ويعلو ويهبط على الجدران بظلاله وهو يحتضر، كانت بائعة الجاز بالقرية "أم رشدي" تمثل البنزينة على طريق السيارات، تقوم بتخزين فناطيس

وبراميل الجاز لتبيع للناس حيث الجاز من لوازم حياتهم في تلك الحقبة قبل توصيل الكهرباء، وذلك حتى نهايات السبعينيات، لتر الجاز يباع ب12.5 قرشا، وإذا نفدت الفناطيس تنتظر حتى يمر عليها موزع بعربة يقودها حصان أو بغل، يجر عليها خزان كبير مليء بالجاز به صنبور ضخم يفرغ منه للزبائن _تجار التجزئة_ مثل "أم رشدي"، كانت تبيع بجانب الجاز لفافات السلك المستخدم في غسل الأواني والصابون الأبيض والأسمر وبعض الحلوى للأطفال وغيرها.

في مقهى"رمضان" يلتف الفلاحون كالقنافد حول شاشة صغيرة لمشاهدة مسلسل المغرب، وكانوا يسبون ويلعنون الحظ إن انتظروا الحلقة بعد طول إعلانات لتظهر المذيعة وتخبرهم بأن مجلس الشعب سوف تذاع جلسته المنعقدة وبالتالي تعتذر لهم عن الحلقة، فيلعنها الكل بوقت غير قابلين اعتذارها ولكن بلا جدوى، كان "محي الدين أبو القمصان"

ابن حلاق القرية دائم الوجود بالمقهى من آخر النهار بعد مذاكرته ساعات طويلة من بعد الغداء،

شاب مجتهد في تعليمه الأزهري وكان من الأوائل على المحافظة في المعهد بالمدينة وتم تكريمه من قبل، وكان له مأرب آخر من مشاهدة التلفاز على غير رغبة الموجودين بالمقهى، فحين تظهر المذيعة يسود الصمت والهدوء تأهبا للإنصات بشغف للحلقة الجديدة من مسلسل (الأيام) والذي كان يجسد فيه الفنان "أحمد ذكي" دور العميد الأديب "طه حسين"، لكن"محي الدين" يقول لهم:

نريد معرفة أحداث ثورة إيران وصلت لفين ياجماعة، لو سمحتم حولوا على الأخبار.

فلا يرد عليه أحد وكأنه لم يتكلم، وينتهي طلب "محي الدين" بلا إجابة بين استبدادهم بالتلفاز واستحواذهم عليه، ولو رد أحدهم يقول: شششش (يعني سكوت)!

بعد المسلسل يعودون للحديث عن المحصول وعن التجار الجشعين وتعنت المسئولين،وينتقلون للحديث حول "صالح شفيق" رجل الأعمال الذي يمدحونه بأنه على الأقل يتصدق على المحتاجين رغم سرقاته وتسببه في غلاء بعض السلع بشكل ممنهج لزوم تجارته، ويقولون بأن غيرَه يسرق ولا يتصدق!

الفصل الثاني

في الجرن الكبير بالقرية يتوافد الشباب للعب الكرة من بعد صلاة العصر،كان الحاج"بكر ابو شلبي" هو مُعلق المباراة في ميكروفون يزمجر ويصرخ طوال الوقت ليصم آذان الحاج"نصار القصبي" الذي لم يستطع الصبر عليهم،فكثيرا ما كان يخرج للتشاجر معهم، لكن مجرد صياح وتنفيث عن الغضب فحسب دون أثر،الجمهور من فئات عمرية مختلفة بالقرية يلتفون دائرة ضخمة حول الملعب لمشاهدة المباراة،ويصيحون كجمهور كأس العالم إذا لامست الكرة قدم"يوسف ابو عوضين" ذلك الشاب المحترف المبهر بطريقة لعبه، يتنبأ الجمهور له بمستقبل مشرف للقرية كلها،كانت النساء على الأسطح يفرطن البسلة والذرة وبعض المهام وهن يشاهدن اللعب بشيء من التسلية والمرح،ولم

تمر الفرصة هباءً على "عبير" المهووسة بحب "يوسف"ولا تكف عن إرسال البسمات العابرة للأسطح لتَسكن قلب "يوسف" المتحمس للَّعب شاعرا بحالة تشجيع لا مثيل لها، كان قد نشأ خلاف بين "عوضين"_أبويوسف_و"نعيمة" _أم يوسف_ بسبب تنافر وجهات النظر حول مستقبل"يوسف"، فوالده يرى بأن المستقبل الحقيقي في أن يكون ابنه لاعب كرة كبير ونجم لامع يكسب المال الكثير والشهرة،وبين تطلعات "أم يوسف" التي تشعر بالغبطة من ابن أختها الذي تخرج مهندسا زراعيا من كلية الزراعة منذ عدة أشهر،وتقول لابنها لو لم تحصل على نفس الكلية سوف أغضب عليك للأبد، بينما زوجها يحاول إقناعها ويقول

: يامَرة ياجاهلة، لاعب الكرة في هذا الزمان أحسن من البيه المأمور،يستخدمه الناس واسطة، ويصل بعلاقاته كما لم يصل عميد كلية الزراعة التي تخرج منها المحروس ابن اختك!

لكنها ترد وتقول: يا عوضين، الأهم من الشهرة والفلوس أن يكون للإنسان قيمة، أنا عندي يقال لي ياأم المهندس ولا يقال ياأم لاعب الكرة مهما كان مشهورا وغنيا!.

تنتهي الحوارات بينهما بتراشق بالألفاظ والاتهامات مثل أن يقول لها" إنت وش فقر" وترد عليه وتقول" وانت رجل خايب".

المشكلة هي أن "نعيمة"_أم يوسف_تربّت كثيرا في المدينة وتشبعت بطباع أهلها ولذلك تهتم بالوجاهة والألقاب،لكن "عوضين" الفلاح البسيط الذي لا يهتم سوى بكيف يقضي يومه هزلا وجدا فحسب،لا يفكر إلا بمنطق الفلوس والشهرة عن القيمة باعتبار أن هذا هو السائد!

لقد حاول "يوسف" كثيرا أن يلتحق بإحدى النوادي بالمدينة لكن الأمور تتوقف بسبب وبغير سبب، حتى أشار عليه بعض الناس وقالوا:

يا عوضين، هؤلاء المسئولين بتلك النوادي يريدون منك أن تغدق عليهم بالهدايا وتتودد إليهم،لا أن تذهب بيدك فارغة كعقلك!

وهذا مُشاع في المجتمع،الواسطة تفتح كل باب مغلَّق، و"يوسف" ولد مجتهد بالدراسة وهو الآن في المرحلة الثانوية،الأمر الذي يشغل والدته بأن يكون من ملتحقي كلية الزراعة،وتخص الزراعة لإمكانية توظيفه كما فعلت أختُها مع ابنها لما بحثت له عن واسطة وتم توظيفه بإحدى الجمعيات الزراعية بإحدى القرى، وبين تلك الرغبات تبقى رغبة"يوسف" الذي يقول دائما" أنا عارف مصلحتي كويس"

ومصلحته هي الوفاء بما وعد به أمه "نعيمة" بأن يلتحق بكلية الزراعة ليحصل على الشهادة،ولا يهمل موهبته كلاعب كرة،وبهذا يكون قد حصل على مكافأة والدته التي

وعدته بها وهي أن تخطب له"عبير"، نشأ حبه للكرة من حب والده"عوضين" لها كمشجع متعصب لنادي الزمالك،فكان يجلس في طفولته بجواره ليجد منه الغضب والاهتمام الشديد بالمباراة،ذلك الغضب الذي يشعل بالبيت حريقة إن خسر الزمالك أو تعادل بمباراة ينبغي أن يفوز فيها لأي سبب،كانت أمه _نعيمة_ تعرف مآل ليلتها إن استطاعت قراءة وجه زوجها وهو يشاهد المباراة،فإن كان يضحك مسرورا ويهلل فستكون ليلة سعيدة،وإلا فهي ليلة سوداء على دماغها وليس عليها إلا أن تتوارى عن عين "عوضين"!.

.....

منذ أن تولى "سليمان" منصب شيخ الخفر بعد وفاة شيخ الخفر"بيومي" إلا وقد عُني بإصلاح القرية، وأن يجعل الكل يمشي على العجين بلا أثر لأقدامهم،فكثيرا ما كان يشعر

بغضب حيال فرح وسرور الناس وقت لعب الكرة بالجرن،فيشق الزحام بصلف ليصطنع أي شيء يعطلهم عن اللعب ويحول مزاجهم ولو لقليل من الوقت يشعر فيه أنه مسيطر،

النساء متجمعات في الترعة يغسلن الأواني والحصير علي الشاطيء ويتكلمن في أي شيء للتسلية،والأطفال قد خلعوا ملابسهم ويتقافزون أمام أمهاتهم

مستغلين ارتفاع منسوب المياه، فهناك أوقات تنخفض فيها المياه وتجف الترعة فلا يستطيعون الاستحمام، وفجأة يعلو دخان كثيف في جرن قريب،فينتبه الجميع هنا وهناك،ويسرع شيخ الخفر والفلاحين من خلفه لمكان الدخان ليجدوا بأن أحدا ما أشعل النار بأكوام القش العالية،يخرج الأطفال سريعا والنساء من الترعة وتتوزع الآنية والفناطيس على الجمهور المشجع للكرة ليتحول المشهد لمشهد مغاير تماما،الكل يسعى لإخماد النار والحد من انتشارها، وبالفعل

بعد ساعة أو ساعتين ينجحون في ذلك وينشغلون في التخمين عن السبب، ويجمع "سليمان" الخفراء بعدما ويقوم بتوبيخهم، ويشير إلى أن الفاعل هو" جودة" إذ لا أحد غيره يقدر أن يفعل تلك الأفعال الجنونية،وأنه يتعمد فعل أي شيء يلفت انتباه الفلاحين بالقرية ليشعر الناس بوجوده بعد غياب طال أو قصر،يقول أحدهم:

جودة يفعل كل فترة ما يجعل الناس تنتبه وتتجمع كأنه نبي مرسل للقرية!

يعلق الشيخ"عبدالعزيز" قائلا وبصوت مرتفع: "أستغفر الله العظيم"

في نهاية الموقف يعود الكل إلى مكانه، النساء إلى الترعة يكملن الغسيل،والأطفال العراة يتقافزون بالترعة بينما عاد من كان بالجرن إلى الكرة، ومن كان بالمقهى عاد إليها،الكل قد مص شفاهه وقلّب كفوفه على الأخرى بما يكفي

: هـات الأخبـار نشـوف إيـران وآخـر التطـورات يـاعمي رمضان، النشرة شغالة.

هكذا يقول "محي الدين".، فيردون عليه جميعا

: التمثيلية بدأت خلاص، وبعدين

اتعلم من المسلسل يا محي الدين وشوف "طـه حسين" كـان بيتعلم ازاي يمكن تبقى حاجة كبيرة يوم من الأيام، ووقتها نسمِّي القرية باسمك.

يرد أحدهم

: عندك حق، تكون عزبة محي الدين وكدا تكون باسم واحد من أهلها، مش عزبة الخواجة.

يقـول الحـاج بكـر: رغـم أن الخواجـة محتـرم وابـن خيـر ويراعي العمال لكن فعلا لابد القرية تتسمى باسم أحد أبنائها.

لم يرد "محي الدين" عليهم واكتفى بغضبه الداخلي كعادته لاستحواذهم على الشاشة ولم يستطع بسببهم فهم ما يدور لأجل المسلسلات التي يعيشون فيها،ينظر إليهم على أنهم كبار السن لا حرج عليهم في تفكيرهم كما لا حرج على المجانين،"محي الدين" نابغة القرية لكنه يشعر في نفسه بتمرد ولا يعجبه شيء.

"أبو رشدي" يعلق على الإعلانات ويقول:

من ربع ساعة ظهرت الست المذيعة وقالت إن المسلسل هايبدأ وطالت الإعلانات المستفزة،إيه الحكاية؟

مش كفاية مجلس الشعب ضيع علينا حلقة امبارح ولا سمعنا حد اتكلم عن الكهربا ولا حتى عن مركز الشباب!

فيرد "عوضين" ويقول :

إيه الفايدة إنهم يذيعوا مجلس الشعب أصلا؟، هو احنا يعني

فاهمين بيقولوا إيه؟

يرد "رمضان" ويقول:

عندك حق، فعلا محدش فاهم شيء غير اللي متعلم ومستنور زي أخينا. يقصد"محي الدين".

يرد "محي الدين" ويقول:

والله لـولا التليفزيـون ماكنـت قعـدت معـاكم تتريقـوا عليـا وانتوا أصلا فيكم كل العِبَر .

يضحك الكل، ثم يقول "رمضان القناوي":

والله كلمة حق قلتها يامحي الدين، فعلا فيهم كل العِبَر !

فينفجرون في ضحكاتهم جميعا

فيقول "أبو رشدي":

أنت مثقف بزيادة يابن حلاق القرية وهذه الثقافة خطر عليك

بيننـا ههههـه، ويكركـرون مـع كركـرة الشيشـة، ثـم يسـتأنف توجيهاته

عِشْ عيشة أهلك وامسك شنطة الحِلاقة بتاعة أبوك واتعلم منه الصنعة، بيكسب كتير وبخيل..

يشتبك معهم في الحوار الحاج"بكر" الذي ترك التعليق على المباراة بالخارج وأتى ليشرب الشيشة وقال:

أنت نسيت يامحي الدين أيام ما كنت بتجري تتحنجل زي الحصان وتقول درجن درجن درجن هههه كنت بتجُر خلفك نصف جركن مشقوق على أنها عربية بحصان ، كنت تملأ الشارع بالتراب وتعكر صدورنا، يضحكون جميعا حتى يسمع للبعض سعال من شدة الضحك.، يقول "عوضين" وسط ضحكاتهم: في موسم الكرنب كانوا يجمعون جذوع الكرنب ويربطونها على أنها بهائم ويتجهون نحو البحر هههه

يشعر "محي الدين" بالغضب والإستفزاز ويقول لهم كل

النــاس يمــرون بمرحلــة الطفولــة وهــذا شــيء طبيعــي أن يتصــرفوا بطفوليــة، لكــن الأهــم ان الصــغير يكبــر لا يظــل صغيرا مهما تقدم بالسن ويكون إنسان تافه!

بتلك الكلمات صوب قذيفة تجاههم ليغتال فيهم حالة المرح، يعلق "رمضان" ويقول:

إسمع يا ولا يامحي الدين، كان الأستاذ "عبد المنعم" دايما هنا بالمقهى،وكان كلامه يشبه كلامك بالضبط،ويحاول يقرفنا بالأخبار والكلام الثقيل شبهك تماما،ودلوقتى حرمناه دخول المقهى..

يضحك الكل ويضحك "رمضان بصوت عال حتى كاد البراد يسقط من يده على الحاج "بكر" بمياهه التي تغلي فينتفض بشكل بهلواني يزيد من الضحك حتى أخذ الحاج"بكر" يسعل بقوة وهو رجل خمسيني لا يتحمل، ما جعل "ابو رشدي" يقول:

الله يخرب بيوتكم هتقتلوا الرجل!

يسأل محي ويقول:

يعنى حرَّمتم على الأستاذ "عبد المنعم" دخول المقهى كيف؟

قال "ابو رشدي": كنا نتعمد مضايقته لحد ما اشترى كرامته وهيبته، وأقسم ما عاد داخلها، وقال "يارب اشهد بأني لن أدخلها أبدا ما داموا فيها" هههه، احنا هنا بنحب ان محدش يشغل عقولنا يا محي الدين،لأن العقل في الحياة بالشكل دا يزيد من معاناتنا،خلينا متعايشين ونعيش يومنا وبكره له رب..

يقطع شيخ الخفر "سليمان"عليهم ذلك الجو الفكاهي بطلته عليهم فجأة من الباب وينظر في وجوههم بغضب ويقول:

مالكم أصواتكم عاليه وضحككم عالي ليه كدا لآخر

الطريق؟ إختشوا !

كان محي الدين يشعر بالغيظ الشديد خصوصا لَما شتمهم شيخ الخفر ولمْ يرد عليه أحد

وانصرف شيخ الخفر بعدما ساد الصمت المكان،وقال لهم بنبرة توبيخ"تعايشوا كما تحبون"

من بين المرات تسبب "سليمان" لكل من بالمقهى بأن أدبهم العمدة بعدما ساقهم شيخ الخفر بجنوده إليه، والذي بدوره استغلهم في تنظيف المصرف باقي النهار حتى المغرب كنوْع من التأديب، ولم يكونوا فعلوا شيئا سوى أن وقت رفاهيتهم لم يعجب شيخ الخفر "سليمان"

وبصوت خفيض يقول "عوضين"

:هات يا رمضان شاي وحجر معسل واشعل للمبات قبل ما الليل يهجم علينا

.....

في الشارع المجاور للمقهى، تعلو الزغاريد،بينما الأطفال يهرولون في الشارع يملأون الدنيا صراخا وضوضاء،يلقي أحدهم قرطاسا مليئا بالتراب الناعم فيتطاير كالدخان فوق الرؤوس، ويتفاخر بأنه نسف الزفة كما لو كان إرهابيا يلقي بقنبلة وسط تجمعات الناس، وما كان منه لما وجد الجد في طلبه إلا أن أخذ الشارع الرئيسي كالطائرة تدلف في الظلام فلا يلحق به أحد،ويقوم أحد الصبيان متبرعا بالوشاية عنه وأنه ابن فلان، وفي المقهى وجد الفلاحون مادة جديدة للحديث حيث تكلموا عن زواج"نفيسة" من "عبدالحميد الفلاح"

: البت فرسة وكانت عاوزة خيال !

: عبد الحميد سمين وله كرش يبلعها فيه، ياترى إيه سبب موافقتها؟

:ياجماعة الموضوع وما فيه إن عبد الحميد من ملاك القرية يعني يوم المنى لما يكون زوج بنت أجير عنده بالأرض.

:وطبعا هو وافق يتزوج من بنت أجير عنده لأنها فرسة.

: كان الواد"عبد الغني" هيموت عليها لكن ابوها"اسماعيل النادي" رفضه

:وسبب الرفض لأنه خاف يعمل في بنته زي ما عمل ابوه "عبداللطيف" ب"سناء"

:ياااه، موضوع "عبداللطيف"و"سناء" دا قديم وما بينساه الناس!

: طبعا موضوع غريب لا ينساه أحد بسهولة، المشكلة ان "محمود"و"صبري" ولاده التوأم ما يعرف عنهم أي شيء

:القصة من عشرين سنة يعني زمانهم شباب الآن

: أو زمانهم تحت التراب ؟

:الله يصبره على نفسه،"عبداللطيف" من بعد طلاقه ل"سناء"واللي حصل بعدها وهو صار كالمجنون، بالرغم من أنه تزوج بعدها وأنجب ولدا وبنتا لكن غياب ولاده من سناء قاتله، من جنونه بسناء كان بيتصرف بدون عقل ولا وعي ولو أي أحد مكانه كان مات بحسرته

:لولا تدخلات العمدة "وهدان" ما كان طلقها لكن الخفير"خضر" أشار عليه بإنه يراجعها بعدين، لكن البنت من وقت ماعرفت ان ابوها موافق على رجوعها اختفت بلا أثر هي والعيلين!

: وهو العمدة كان حازم وعادل للدرجة دي يعني، ما كان يحكم بالعدل في بنت أخته اللي حرموها من الميراث وماتت بحسرتها.

أثناء حديثهم دخل المقهى كلبُ "عبدالغني" ووقف على

الباب ينظر إليهم كأنه يريد أن يشاطرهم الحديث،ثم التفت للخارج وانصرف

:عبد اللطيف كان بيضربها بعنف، كان بيعاملها كأنها جارية اشتراها وياريته

حافظ عليها، ولما طلقها ظن أنه هيراجعها بسهولة بعد فترة، وطلقها عشان يخرج من موقفه مع العمدة!

يقلب "رمضان" السكر في الشاي وقرقعة الملعقة لها صدى بالمكان، ويقول:

مين اللي طلب شاي فيكم؟

:هات هنا يا رمضان عند عوضين

كان "محي الدين" يستمع للحوار وهو غير مدرك لكثير مما يتحاكون عنه لكن يرد في هذه اللحظة ويقول

: من عشرين سنة كان عمري أربع سنين!

كان سنة 1959 م وكانت نهايات المظاهرات والاحتجاجات الريفية في المغرب ضد التهميش والإهمال.

يلتفت إليه "عوضين" ويقول:

جرى إيه ياد يا محيي؟ الله يخربيت أبوك ابو القمصان، مالك ومال الثورات بالظبط؟

يلتفت "أبو رشدي" وهو يتندر عليه قائلا:

أصل تقريبا يا عوضين والله أعلم الواد محي الدين دا جاسوس مزروع وسطينا .

فيرد "محي الدين" بغضب:

والله انتوا بعزبة الخواجة محتاجين تتزرع وسطيكم قنبلة تجيب أجل الكل، قال جاسوس قال!

ينفجرون بالضحك والفوضى تعم المكان كما لو كان حانة

سكر وعربدة!

يقول قائل منهم وهو يمسح عينيه بظهر كفه: خير اللهم اجعله خيرا!.

كان "رمضان" يملأ البراد ويضعه على النار ويغسل الأكواب وينظر إليهم في مرح مستمتعا بحديثهم المسلي، لكن حديثهم لم يكن مسليا أبدا للحاج "نصار القصبي" النائم منذ ساعتين يغط في نوم عميق، ينام على مصطبة من الطوب عليها بعض قش الأرز الذي يعمل عمل الإسفنج أو القطن تحت ظهره، رجل بلغ الستين من عمره لا شيء عنده يقوم به في حياته غير النوم أينما حل.، انتفض من نومه ليسبَّهم ويلعنهم وهم يزيدون من الضحك والكركرة، يسأل " عوضين":

قل يا فيلسوف عصرك ، طبعا يقصد محي الدين، لو زرعت فينا قنبلة وأبادتنا جميعا، كيف يأتي جيل جديد؟

يعلق "أبو رشدي": هيطلع شيطاني .

فيضحكون ويكثر لغطهم..

أصوات طقطقات ماكينات الري تشبه كركرة الجوزة في أفواههم، وفجأة دخلت دجاجة هاربة لتزيد من الفوضى بدورها، كانت قد قفزت من السطح وتبعها أطفال الشارع فما زادوها غير فرار باتجاه المقهى، وتسببت الدجاجة الثائرة في سكب كوب الشاي من يد الحاج "بكر" على جلابيته التي كان يفتخر بها، أهداه إياها نسيبه، وانطلقت الشتائم كالقذيفة منه نحو الدجاجة وأصحابها، لكن لما تبين له أن صاحبتها هي الست "ام شكرية" تغيرت ملامحه للهدوء وتراجع عن السب والشتم وقام بكل هدوء ليمسك الدجاجة ويرفض أن يعطيها لأي طفل ولابد أن يعطيها لصاحبتها بنفسه!

الناظر في جلسة هؤلاء الفلاحين وضحكهم الكثير وتندرهم على أي شيء حتى أنفسهم، يظن أنهم قوم لا مشاكل عندهم

ولا يحملون للحياة همّا، لكن الحقيقة أنهم في مشاكل كثيرة لا حلول لها، ولذا يهربون منها بالضحك المصطنع..

كان الشيخ"عبدالعزيز" والأستاذ "عبد المنعم" دائما لديهم الرغبة في توعيتهم بفساد الجمعية الزراعية وأثرها على الإنتاج الحقيقي للأراضي، لكن "رمضان" وهو صاحب المقهى رفض الكلام فيما يسميه سياسة، ومنع من دخول المقهى أي أحد يتسبب له في مشكلة.

يدخل عليهم الخفير"خضر"ويسألهم لو أن بينهم ثلاثة أنفار جاهزين للعمل غدا في سراية الخواجة؟، فينتفض "نصار" من نومه ويقول:

أنا جاهز لمدة أسبوع.، ويتفق الخفير معه ومع اثنين آخرين للعمل من الصباح الباكر..

الخفير"خضر" شخص محبوب عند الفلاحين لأنه لا يظهر

كثيرا بينهم وبين العمدة ولا يسبب لهم أي نوع من المشاكل مثل غيره، بل هو خفير يلازم الخواجة ويراعي سرايته وأرضه بالحراسة مع بعض الخفراء المتناوبين معه، لكن الخواجة يحب "خضر" ويعامله كصديق ليس كخفير، وهذا يعود لطيبة وعفوية "خضر" الذي لا ينقل الكلام للعمدة، وليس خبيثا كما يعلل الخواجة علاقته به بذلك، فهو يخدم الخواجة ويفعل له الكثير ويتسامر معه، ووجد الخواجة فيه الصديق الذي يؤنسه بشكل إنساني بحت، بغض النظر عن أي اجتماعيات أخرى، وكان الخواجة دائما ما يقول بأن "خضر" عنده أفضل من أي شخص مهما كانت رتبته ومنصبه بالقرية، فبينهما مؤانسة وألفة ومصاحبة نفسية ومواتاة روحية لمست في الخواجة إنسانيته، مع الحفاظ على بعض المسافات في علاقته به بالطبع، والخواجة"سمعان"بطبيعته يميل للانطواء كثيرا لكن ليس بشكل مطلق وإنما في حدود، فهو لا يتوافد على دوار العمدة

كثيرا إلا لو لمصلحة مهمة، ولا يحب التواجد كثيرا بين ضباط المركز والمديرية في حال زيارتهم للعمدة لما بين العمدة وبعض الشخصيات المهمة من صداقة ومصلحة، ولكن الخواجة يحب التعامل مع البسطاء الطيبين كما يصفهم، فتجده يذهب للسوق بمصاحبة "خضر" الذي يحمل عنه الأكياس ويسليه في قضاء احتياجاته، ولأن الخواجة لا اهل له بالقرية فهو أهل لنفسه ويستعين ب"خضر" على ذلك، فمنذ أن ماتت زوجته"كارولين" وسافر أبناؤه الثلاثة إلى موطنهم_اليونان_ إلا أنه أصر على البقاء بالقرية لما له فيها من ذكريات كثيرة وأملاك بحوزته، ولم يستمع لمشورة أبنائه آخر مرة زاروه فيها حيث طلبوا منه بيع ممتلكاته والعودة معهم لليونان.، الخواجة "سمعان" تخرّج من كلية القانون ولكنه لم يعمل بالمحاماة رغم أنه ضليع فيها، ويستشيره العمدة وشيخ البلد كثيرا في أمور قانونية، وقد أوكل الخواجةُ العمدةَ وشيخَ البلد كلاهما في تصريف

محاصيل أراضيه ومزارعه، وكان كل شيء يُقضى من خلال العمدة وبالطبع كان مستفيدا وبعلم الخواجة الذي لا يهتم إلا بأن يعيش أيامه مرتاحا خالي البال، يكفيه فقط مراجعة كل شيء مع العمدة في جلسة حساب كل حين و يقوم بتدوينها بالدفاتر وينتهي الأمر، ولأن الخواجة يعيش بسرايتِه وحيدا رافضا الزواج رغم أن عمره ثلاثة وخمسين سنة لا تبدو عليه علامات الشيخوخة، فهو يستعين ببعض عجائز القرية ويمنحهن المال لشراء الدجاج والبط والأرانب وتربيتها عندها مقابل النصف، فلو كانت الدورة عشرين دجاجة فلها عشرة منها وله مثلهم رغم المال كله منه، لكنها بالمجهود حصلت على النصف، وهذا كان يجعل الخواجة مثل تاجر السعادة بعزبة الخواجة، لأن أي امرأة تتمنى وتعرض مواهبها على الخواجة ليمنحها شرف أن تربي له طيرا، حتى أن العروض توالت عليه لمشاركة بعض الفلاحين في تربية المواشي وكان رده

:أنا لو أربي بهائم لن أشارك فلاح خبيث، عليّ فقط أن أدفع لكم المقابل كموظفين وعمال عند الماشية!

واعتبرها أهل القرية إهانة منه، غير أنه كان ذكيا جدا، وعَلّل فِعلَه مع النساء اللاتي يربين له الطيور بأن ذلك شيئا بسيطا ويعود عليهن بخير، ولو شعر بأي ساعة بأنه يشتهي دجاجة أو أوزة أو أرنبا فعليه فقط أن يرسل"خضر" إلى إحداهن ولا يعود إلا بالطير جاهزا على الطهي، وكان الخواجة لا يحب أن يأكل من يد أحد، بل يحب أن يطبخ لنفسه ويأكل من عمل يده، ويكون حظ الخفير"خضر" هو ما تبقى من الخواجة من طعام، وأحيانا كان يعطيه الخواجة جزءا من الأرنب ويقول له: " كل خضر، فأنتم فلاحين تأكلون مال النبي". ويضحك ضحكته التي فورما يسمعها "خضر" إلا وينفجر في ضحكه ولا يكف حتى يصيح الخواجة فيه ليسكت، ويقول له: " خلاص خضر انت ما تصدق تضحك".

الخواجة" سمعان" مسيحي أرثوذكسي يوناني الجنسية ومن أصل يهودي، فجده الثالث كان يهوديا صاحب تجارة واسعة بالأسكندرية والقاهرة، فمنذ الانفتاح في عهد "محمد علي باشا" حيث توافد الأجانب على مصر وأنشأوا فيها معالم وأحياء سميت بأسمائهم بعد ذلك، من بينهم جد الخواجة، ثم توارث أبناءه من بعده كل شيء، وقد تزوج أحد أبنائه من مسيحية وانتقل من اليهودية للمسيحية وأنجبا "منيب" والذي أنجب "ألفونس"جد الخواجة الأول والد أبيه"بطرس"، لكن مع هذا إلا أن الخواجة مسيحي بالاسم والمذهب فقط غير أنه كان متفلسفا عقلانيا بشكل متمرد، فكان لا يعجبه الكثير من أفعال بني مذهبه بل ديانته ككل، وأكبر شيء لا يقتنع بع مسألة الثالوث الذي تعد أصلا للإيمان المسيحي، ويبدو موحّدا بالفطرة كما كان "آريوس" من قبل، وذلك قبل مجمع "نيقيا" وتأسيس عقيدة التثليث، فهو مسيحي الديانة مسلم العقيدة، لذلك كان يرجو الشيخ "عبد العزيز" له أن يموت

مسلما، وكـان يحـاول جاهدا لأن يجلس معـه ليعرض عليـه الإسلام، لكن الخواجة كـان يـرفض مطلقا الجلوس والحديث معه وما كان يحبه لشيء في نفسـه، والشيخ"عبدالعزيز" هو واحد من الشيوخ السنيين بالقرية كما كان يُطلق عليهم، يعمل محفظـا للقرآن وهو من بين الشباب المؤثرين بالقريـة ولـه نشـاط واضـح، رغـم أن بينـه وبـين الشـيخ " ربيـع" بعـض خلافـــات بخصـــوص المـــذاهب وبعـــض المســـائل، والشيخ"ربيـع"هو ممثل الأزهر الشريف بالقريـة لأنـه إمـام المسجد الكبير ويستفتيه الفلاحون فـي دينهم، وأول الخلافات بينه وبين الشيخ "عبدالعزيز" أنـه أفتـى بعدم وقوع الطلاق لأنه في حيض، بينما كان الشيخ "عبد العزيز"متعصبا لرأيـه بوقوع الطلاق مـع الإثـم، ولـم يكن عقل الشيخ "عبدالعزيز" يستوعب الكلام فيما هو مختلَف فيه ولكنـه كـان يصـر علـى رأي اتخذه هو وجماعتـه شريعة وكـأن الدليل يقينـي بدلالـة قطعية!

ووقف الشيخ "ربيع" على المنبر مرة يحذر الفلاحين من أن يأخذوا دينهم عمن لم يدرس بالأزهر، واعتبر الشيخ "عبد العزيز" وأصحابه ذلك إعلان فرقة بينهم وبينه وبدأت مشاحنات كثيرة أخذت تمر بمراحل مختلفة بين عداوة وهدنة وصداقة!

ولأن الخواجة كان يُنقل إليه بعض تصرفات الشيخ "عبدالعزيز" وأصحابه بالقرية ورأيهم فيه كمسيحي فهو يرفض تماما التعامل معهم بل ويشعر بالقرف تجاههم، بخلاف الشيخ"ربيع" بشوش الوجه يضحك ويصطنع النكات لو جمعتهما فرصة وهذا قليل ما يحدث، الخفير "خضر" كان ينقل للخواجة كل ليلة ما حدث بالقرية طوال النهار، وكان هذا هو ما يجعل الخواجة في حالة من الانتشاء لأنه يبدو كحاكم لديه جهاز مخابرات قوي يطلعه على خفايا القرية، ورغم أن الخفير "خضر" لم يكن يقتنع ببعض القصص والحكايات التي كان يحكيها له الخواجة وكان يشك

فيها ليس عن علم ومنطق وإنما عن خلفية دينية ثابتة في صدره، لكنه لا يستطيع البوح بها، وهي أن الخواجة مسيحي وكل كلامه باطل، ويذهب الخفير "خضر" ليسأل الشيخ "ربيع" عن بعض القصص والمعلومات التي قالها الخواجة له من قبل، فكان أحيانا ما يثبت الشيخ "ربيع" هذا الشعور عند الخفير "خضر" وأحيانا ينفيه بأن يقول له " هذا الكلام صحيح وله أصل عندنا في الشريعة الإسلامية ياخضر.، الخفير "خضر" يحافظ على الصلاة ويصلي أمام الخواجة وهذا التصرف كان يفرح به الخواجة ويقول له: صلِّ ياخضر، أنا أحب من يصلي للرب، على اختلاف الدين والمذهب طالما أنك تصلي له فأنت ابن الله البار.

لكن "خضر" انزعج بشدة من وصف الخواجة له أنه ابن الله، وهرول للشيخ "ربيع" فلم يجده لكنه وجد الشيخ "عبدالعزيز" يقرأ القرآن في غير وقت الصلاة، فسأله عن

الكلمة التي قالها له الخواجة؟

فانزعج الشيخ وقال له، ألا لعنة الله على الظالمين، كيف يجرؤ الخواجة أن يصفك بأنك ابن الله! ، النبي محمد خير البشر وأفضل من الملائكة لم تقال له تلك الكلمة، دعك عن هذا الكلام الذي يُخرج صاحبَه من الإيمان، أما لو لم يكن مؤمنا فليس بعد الكفر ذنب والله أعلم.

لكن الخفير يتذكر الخواجة ليلة أمس وهو يقول: "يارب، لك رفعت عيني، ياساكنا في السماوات". وكان الخواجة يناجي ربه وينظر للسماء، فتساءل خضر كيف يكون الخواجة كافرا؟!

لكنه لم يستغرق كثيرا وقتل السؤال بداخله ودفنه وهال عليه التراب.

الفصل الثالث

في بدايات عام 1980

كان قد انشأ العمدة "أبوالفتوح" سوقا كبيرا بالقرية يوم الأحد من كل أسبوع، وكان أهل القرية من قبلُ يتبضعون من سوق مدينة طلخا التي تبعد عنهم نصف ساعة بالسيارة، فيتوافد

الباعة من كل مكان ويعرضون سلعا وبضائع مختلفة، وأحدَثَ هذا السوق بالقرية انتعاشة ملحوظة، فبعض الفلاحين الذين كانوا يعتمدون على اليومية _كعمال_ ولا سبيل للرزق لهم غيره قد فكروا بعقولهم وأنتجوا ما يبيعونه بالسوق، ومنهم من كان يشتري بالجملة ويبيعه ويتربح منه كدخل إضافي، كان السوق بعزبة الخواجة سببا لعرض البضائع بل وعرض الناس على بعضهم في الشارع الكبير، فترى الفتيات اللواتي يتسكعن في السوق يشاهدن البضائع والسلع ويفاضلن بينها، أو تلك المرأة تنتقي القماش وتفاصل في السعر مع البائع بغنج يقع في قلبه فيضاجعها البائع في خياله ليبيعها القماش ربما بسعر أقل من سعر الجملة، حالة الانفتاح التي حدثت بالقرية أخرجت ما كان مختفيا من مواهب ليعرض أمام العامة، بل ترى تلك العروس التي لا زال أثر الحناء على كعوب قدميها وتضع الكحل في عينها بلا احترافية لكن عينيها أقوى تأثيرا من أن ينتبه أحد لخروج

خط الكحل عن مداره، بل أرادت تلك الفتاة أن تزيد من رسم عينيها البنيتين بالكحل فجعلت على عينيها تقاطعا بين خطي الكحل في نهاية الجفنين فكانا كذيل سمكة السردين، رائحة السمك تفوح بالسوق، وهذا ما يثير شهية الخواجة فيرسل الخفير "خضر" لشراء السمك الطازج من تلك البائعة العجوز التي تبدو كعاهرة في نظراتها وكلامها،تظن بأنها تجذب الزبائن لشراء السمك لكنها في الحقيقة تجذب مرضى القلوب لشراء الوهم بالسمك، تنادي الزبائن بقولها المعروفة به وطريقتها المائعة:

قرَّب قرَِب ياباشا، تعال اشتري السمك الطازج، لو مش مصدق انه طازج تعال دوق.، تقولها وهي تبتسم بخلاعة مع تحريك حاجبها الأيسر، ولك أن تتخيل لو أنك تذهب لشراء اللحم فوجدت لحما يغطيه عباءة سوداء مجسمة يبدو أنه أشهى بكثير من اللحم المعلق أمام دكانة الجزار!

ساعة واحدة وتفرغ صناديق السمك، رغم أن رجال القرية

يصطادون من البحر والترع في الليل، لكنهم يتطلعون لسمك دمياط الصاحي كما كانت تنادي تلك المرأة لتجلب الزبائن!

:قرَّب قرب قرب معايا سمك دمياط الصاحي، سمك طازه صباحي، هاتي الوعاية وانتِ جايه.

لكن أسلوب تلك المرأة الخليع لم يكن ينفع الخواجة، فطريقتها ولغة جسدها تضفي على الكلام المباح خلاعة يفهمها الرجال والنساء، رغم أن تلك المرأة كانت تزيد وتزيد من طريقتها للخواجة الذي ينظر إليها على أنها سمجة رخيصة تبيع السمك بما تهبه من حيائها مجانا، فكم وكم من رجل تخيلها عارية في حضنه بسبب تلك الطريقة في الكلام.

: بكم السمك ياست؟

قالت بغنج: من غير فلوس يا خواجة

رد عليها بصرامة: بكم السمك قلت؟

شعرتْ بالحنق وقالت: بجنيه وبريزة يا خواجة

يلتفت الخواجة ل"خضر"ويقول له انتقي 2 كيلو واعطها جنيهين وربع.، وينشغل الخواجة بالسوق كما كان يحب أن يتمشى فيه ليشعر بالأنس وهو يتفرج على الناس، وينتقي الخفير السمك وينصرف، ثم يُقبل على البائعة شخص آخر فيسألها بكم السمك ياست؟

فتقول له: كيلو وربع بجنيه ياخويا.

كان الباعة يأتون ببضائعهم التي يحتاجها أهل القرية من فاكهة ومن أسماك ومن أنواع الحلوى التي ربما صنعوها بأيديهم في بيوتهم ليلة السوق، بينما النساء من أهل القرية كن يفرشن في أسواق المدينة بما يحتاجه أهل المدينة من أنواع الجُبن القريش والقديم ومن أنواع الطيور وكذلك الأرانب وما يفيض على بيوتهم من الأرز والقمح والدقيق وخلافه، كن يفعلن ذلك طلبا للمال للاستعانة به على

متطلباتهم الأخرى من علاج ودواء وغير ذلك،

تختلط الأصوات ببعضها والنساء مجتمعات علي عربة الخضار والفاكهة، وفجأة تصرخ امرأة بأعلي صوتها حين تحسست كيسة النقود فلم تجدها، وهنا ينتزع البائع الأكياس من يدها وهو يقول لها: يعني ساعة تعطليني عن الزباين وبالنهاية تطلعي نصابة؟

أمسكت بطوقه بقوة وهي تسبه وتشتمه وتقول له: أنا نصابة يابن الكلب؟

وهنا يجتمع الناس عليهما وتحدث الفوضى حتى يأتي شيخ الخفر ومعه بعض الخفراء ليفضوا التجمعات ويحققوا في أسباب المشاجرة

: مالك ياست صفية خيرا؟

: الفلوس اتسرقت، وابن الكلب ماعنده إنسانية يتهمني

بالنصب.

:خـلاص خـلاص، الله يعـوض عليكـي، وانـت يـابني خليـك محترم شوية متبقاش قليل الأدب.

الخواجـة كـان منتبهـا لمـا يحـدث وعلـى الفـور ذهـب للبـائع وسأله: كم ثمن الأشياء اللي اشترتها المرأة؟

قال: جنيه وثلاثين قرشا.

وضـع الخواجـة يده فـي جيبـه ليدفع لـه بينمـا الست "صـفية" تبكي من الموقف.

وهنا يأتي شخصٌ منطلقا كالجواد إلى العربة فيقلب مـا عليها في الطريق، إنه "جودة" ذلك الشخص الذي هو محل خلاف عنـد أهـل عزبـة الخواجـة، فتـارة ينعتونـه بـالمجنون، أو بالساحر، أو بالدرويش، ومع كل فهم يهابون إغضـابه تحسبا لأي سوء يقع بهم يكون بسببه.، ويريد"جودة" أن يضرب

البائع الذي أمسك به كفأر مبلل في ركن لكن الخفراء يفضون الاشتباك، ويمضي الخواجة بعيدا عن الفوضى وهو يتمتم، بينما كان على عربة الفاكهة يقف الشيخ "عبدالعزيز" وبجواره الأستاذ"عبدالمنعم" وهم يشترون البرتقال، فيعلق البائع على الخير الذي فعله الخواجة برضى، فيقول له الشيخ "عبدالعزيز": هذا الخواجة مسيحي، يعني الخير الذي يفعله لا يثاب عليه بالحسنات ولكن يُخلِف الله عليه في الدنيا به، لأن شرط قبول الصالحات أن تكون مسلما، وهذا ديننا.

يلتفت الأستاذ "عبدالمنعم" بغضب ويقول: ياشيخ، المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وعزبة الخواجة ليس بها إلا الخواجة فقط مسيحيا، ونحو خمسة آلاف مسلم، يخضع الفلاحون للظلم، ويأكل كبيرهم مال صغيرهم، نحن نحتاج لنعود لإسلامنا ونعلق على بعضنا بدلا من التعليق على غيرنا، الخواجة فعل مالم يفعله كثير من المسلمين المشاهدين للموقف، وبينهم من يستطيع فعل ما قام به الخواجة.

نظر الشيخ له وقال بتهكم: لماذا لم تفعل أنت؟

قال له: أنا موظف بسيط راتبي ضئيل وتمنيت لو فعلت معها ومع غيرها دون أن ينصحني أحد بذلك، ثم أنت أيضا لم تفعل!

قال له الشيخ وعينه تزوغ بكل الاتجاهات: وأنا أيضا ليس معي إلا ما أتبضع به.

كان شيخ الخفر قريبا منهما يتنصت، لحِظَهُ الشيخ ورمقه بنظرة حنق وبغض، فبينهما مواقف تركت في نفسيهما تجاه بعضهما نوعا من الترصد والكراهية، وهذا منذ أن منعه شيخ الخفر من الكلام بالمسجد ذات مرة ووشي به للعمدة الذي أرسل إليه بتهديد لو لم يكف عن الكلام في المسجد للناس، حتى وإن كان كلامه موعظة فحسب، وهذا ما جعل في نفس الشيخ "عبد العزيز" وأصحابه فكرة بناء مسجد يسمونه مسجد أهل السنة والجماعة بالقرية، يكون بعيدا عن

سيطرة الأوقاف وروتينية الوظيفة، وقد فعلوا ذلك في عدة قرى من قبل، كانت التعليمات وقتها واضحة على ذلك من المديرية لكل العمد والمشايخ بألا يسمحوا للسنيين والفصائل الأخرى غير الأزهريين الحديث في المساجد، بل وحتى الأزهري الذي يتكلم بحرية مطلقة يعدونه منهم، خصوصا بعد خطبة الرئيس "السادات" التي كانت لهجته فيها شديدة وصارمة بعدما أفرج عن الإخوان المسلمين وأخرجهم من السجون وصرَف للموظفين منهم مستحقاتهم كاملة وأعادهم لوظائفهم عام 1970،ثم بدأوا بمقالاتهم وتصريحاتهم يناهضونه ويناهضون سياسة الدولة،خصوصا تفعيل الرئيس قانون الطواريء الذي لم يعجبهم ويحاربونه منذ أن عمل به "عبد الناصر" أول مرة عام 1967.

.....

الحاجة"صفية" امرأة تبلغ من العمر خمس وخمسين سنة

لكنها تتمتع بصحة جيدة، وهي من عزبة الشيخة حُسْن، حوالي خمسين بيتا على مرمى البصر من عزبة الخواجة تفصلهما عشرات الأفدنة، بينهما طريق ترابي على حافة الترعة الكبيرة، وقد سكنَتها منذ زمن شيخة تسمى"حُسن"، كانت تحفظ القرآن وتعلمه للأطفال من بينهما الشيخ "إبراهيم" والد الشيخ "عبد العزيز" الذي علمه القرآن بعد ذلك، وكانت مع أبيها يسكنان في تلك المنطقة وسط الحقول ببيت من الطوب اللبن، يأتيها الناس للتبرك بها وتفسير الأحلام والرقية،ثم مع الزمن بدأ الناس ببناء بيوتهم حولها لتسمى العزبة باسمها"عزبة الشيخة حُسن"، وكانت الست " صفية" هي آخر امرأة لازمتها وخدمتها لمدة سنتين قبل وفاتها عن عمر يناهز السبعين ونيف، ماتت ساجدة في الثلث الأخير من الليل، ومن يومها والناس يتبركون بها وباسمها بكل مكان وصله سيرتها، أما عن تصرف "جودة" الدفاعي عنها فليس عشوائيا إذ انه لم ينشغل بشيء ولا بأحد بعزبة

الخواجة بالأصل، لكنه تربطه بها علاقةُ إبنٍ بأمِه، فقد تربى في بيتها سنين منذ طفولته إلى أن اعتمد على نفسه وبدأ يتحرك مع وجهته في بلاد الله، و "جودة" يبلغ من العمر ثلاثا وعشرين، قصيرة قامته برجله عَرج بسيط، أجعد الشعر عيناه واسعة بهما سواد الليل، وأنفه صغير وشفاهه غليظة، صدره عريض وأصابع يديه ضخمة كعروق ساعديه وقدمه، مهملا في مظهره كمجنون، صامت لا يتكلم إلا قليلا جدا، يختفي من القرية ويظهر فجأة مرة أخرى ويفتعل المشكلات التي تلفت انتباه الناس له حتى راحوا يربطون بكل مصيبة ووجوده بالقرية، وما كانوا يملكون قرار إيذائه والتعرض له لما بينه وبين الدجال"الشيخ متولي" علاقة وطيدة، والناس يهابون هذا الرجل لأن سره باتع كما يصفونه، وساحر قوي يأتيه الناس من كل مكان، الشيخ "متولي" وزوجته العاقر السوداء صاحبة الملامح المخيفة يسكنان ببيت صغير بالقرب من المقابر على حافة الحقول

ولا يختلطان بالناس ولا يهتم بهما أحد، بل يُستعان به في كثير من القضايا الغامضة والتي لا تفسير لها، حتى العمدة وشيخ البلد وضباط المديرية يستعينون به.

الفصل الرابع

يتوقف القطار عند محطة فرعية ذات رصيف مهمَل بحدوده

المتهدمة، ويندفع الركاب منه باتجاه الطريق المؤدي لعزبة الخواجة وغالبهم من الطلاب الذين يدرسون في المدارس الفنية والثانوية بمدينة بلقاس، الرصيف بدا كمنحدر للأسفل حيث بداية الطريق الترابي بين الحقول، تغوص الأقدام في الحصى والصخور السوداء، يسقط "يوسف عوضين" على ظهره حينما انزلقت قدمه، وضحك بعض الشباب والفتيات بينما راحت"عبير" تسرع باتجاهه لتمد يدها له لينهض وقت أن كان يتمنى أن تبتلعه الأرض من الحرَج الذي شعر به، لكنه نهض سريعا وقام مصطنعا الضحك و هو يمازح أصحابه ويقول لهم: الحمد لله كنت سأقع.

ابتسمت"عبير" له ابتسامة مواساة لموقفه العبثي حين قال له أحد زملائه: تعرف يا يوسف ان اللي حصل لك الآن هو تفسير لدرس اليوم؟، حيث أن قوة دفعك وأنت منحدر لأسفل باتجاه الجاذبية وتحرك الحصى من تحتك جعل هناك رد فعل مساوٍ له في المقدار ومضاد في الاتجاه...

قاطعه يوسف قائلا: ما علاقة سقوطي بهذا الكلام لا تاكل دماغنا يكفي مدرس الفيزيا علينا، لكن الآن دعنا نستمتع بالجو الشاعري بعيدا عن جمود تلك المادة الثقيلة على قلبي.

الطريق ضيق يكفي لعربة كارو واحدة للسير عليه، طوله حوالي ألف وسبعمئة متر تقريبا حتى يصل نهايته عند المسجد، كان الناس يحبون المشي في هذا الطريق صيفا بعد العصر ويتمتعون بالأجواء الريفية ومشاهد الطيور والأشجار والطبيعة،ورائحة الزروع المختلطة بروائح روث البهائم، وسيمفونية الريف الطبيعية من اختلاط حفيف الأشجار مع زقزقة العصافير ونباح كلب من بعيد كأنه آلة تعزف بدورهاوسط آلات عازفة، بينما طقطقات ماكينات الري تبدو كالطبلة وسط اللحن، فما أجمل أجواء الريف النظيفة التي تعيد الإنسان لأملاكه الحقيقية من بساطة وأصالة تشعرك بالراحة والسكينة!، في تلك الأجواء تكون كأنك عُدتَ من جديد لموطنك البدائي قبل أن تطاله خراب

التكنولوجيا التي جاءت على أنقاضه، أما في الشتاء فكان الطريق يتحول لكومة من الطين العائق للحركة، تتسخ أقدام وثياب الناس وربما يفقدون أحذيتهم في وحلِه، ولم تكن تستطيع أي عربة السير في هذا الطريق إن اشتد المطر وإلا فسوف يلقيها الطريق في الترعة وبالفعل قد حدث هذا مرات عدة، إن لهذا الطريق فضل كبير على العشاق في عزبة الخواجة سيما الشباب الذين يدرسون في مدارس المدينة ويألفون الطريق ذهابا وإيابا في صحبة الفتيات كل يوم حتى يقع الحب بينهم لا محالة، فالناس في عزبة الخواجة كانوا مترابطين لدرجة شديدة حتى أنهم كانوا يأمنون على بناتهم لأجل أنهن بصحبة شبان القرية، ومِن بين قصص الحب كانت قصة "يوسف" و "عبير"، ففي العام الدراسي يضمنان المقابلات والكلام فيما بينهما كل يوم، ويستغلان الطريق الشاعري للحديث الرومانسي سيما إن أصابتهم السماء برذاذ ورَّش المطر الذي يُنبت بداخليهما نبات الدفء فيما بينهما،

كانت "عبير" في فصلها الدراسي الأول بينما كان"يوسف" في الثالث والأخير، وتمنيا أن يطول هذا العام الدراسي ألف سنة، فبعد تلك السنة سيكون طريق "يوسف" لجامعة المنصورة من قبالة القرية لا من ظهرها كما هو الحال الآن، فالقرية تتوسط المدينة والمحافظة، وعلى الطريق عدة قرى أخرى كذلك.

يلتفت يوسف لعبير ويقول حزينا: كلما تذكرت أنها آخر سنة لي على هذا الطريق أصابتني الكآبة، فمنذ سنتين وأنا أروح وأجيء لكني لم أحب الطريق كحبي له الآن في تلك السنة، وما انتظمتُ في الحضور كانتظامي في هذه السنة، كل هذا لانك جَمّلتي لي الطريق وزرعتي فيه زهور الجمال والمحبة، وأصبحت المدرسة والطريق يمثلان لي سر السعادة بسبب وجودك.

عبير: لكني أخاف إذا انتقلتَ للجامعة انك تنساني يا يوسف،

بنـات المنصـورة جميلات كمـا قالـت لـي أمـي، سوف تتبهـر بالمدينــة وسـكانها وبناتهــا، صــحيح يــا يوســف انــك ممكــن تنساني وتحب غيري؟!.

قالتها بخوف وقد توقفَت عن السير ملتفتة قبالة وجهه..

ابتسم لها وقال: ولا بنات الدنيا كلها، انت وفقط يـاعبير ومش هشوف غيرك..

ابتسمَت له وتنهدت في راحـة، وقالـت: لكـن أخـاف مـن شـيء آخر يا يوسف؟

: إيه هو يا عبير؟

مطّت شفاهها وترددت لكنها نطقت قائلة: أنا مجرد دبلوم فـي نظرك، ولما تصبح مهندسا كبيرا يقولون لك ياباشمهندس، وقتها سيقولون لك تزوج من فتاة جامعية مثلك، واكون نفس مصـير سـناء وحكايتهـا بعـد مـا تركهـا حسـين وكمّـل تعليمـه

وسافر.

ضحك يوسف بشدة، وقال: لا تخافي، لعلمك ياعبير أنني أجتهد حتى ألتحق بكلية الزراعة مخصوص لأجلك، لو كان الأمر عليّ وحدي لانتهيت من الدراسة بدبلوم صناعة وكفى، وأتعلم لي صنعة أو أعمل بأي شغلانة مع لعب الكرة، أنت عارفه أني أحب الكرة جدا وأخاف أن تزداد الأعباء بسبب الكلية وأنساها وتضيع لياقتي!

: يعني هتخطبني لو دخلت كلية الزراعة على طول يا يوسف؟.

: أيوه، هخطبك على طول قبل ما اتخرج وقبل ما تتخرجي ياست البنات.

نظرت "عبير" ناحية الساقية الكبيرة المهجورة وقالت: تدري يايوسف؟، أنا كلما اقتربت من هذه الساقية يدب الرعب بقلبي ؟

قال : هذه الساقية لها حكايات كثيرة منذ زمن، الآن انتشرت البيوت والوضع اختلف عن زمان، كنا نسمع ما يشبه الأساطير ياعبير، ومع ذلك لم نرَ منها أي شيء مما يقال عنها، نحن محظوظون جدا لأننا نعيش في عالم غير عالم أجدادنا، هذه الساقية ارتكبت عندها جرائم قتل كثيرة بين الناس، والفلاحون الذين يبيتون في أراضيهم للحاجة وقت الحصاد كانوا يحكون قصصهم الليلية مع العفاريت، منهم الحاج "صبري" والد عمك "عبد اللطيف" أبو "عبد الغني" و"سمية" تعرفيه؟

: أيوه، مافي بالقرية أحد لا يعرفه.

:عمك الحاج "صبري" كان أكثر الفلاحين بالقرية له قصص مع العفاريت والنداهة، ومع ذلك كانت نهايته مأساوية كما حكى لي والدي

حدقت"عبير" في خوف بوجهه وقت أن تخيلت المشاهد التي

يحكيها الناس، وسألتهُ: نهايته مأساوية كيف؟

فقال لها وهو يخفي ابتسامته: رفسه البغل في منطقة حساسة في أسفله ففقع له...، قاطعته فجأة: خلاص خلاص فهمت مش لازم تفاصيل.

يقهقه "يوسف" ويقول لها: والله هذا الذي حصل، هل تعرفين ان سماء تلك القرية شهدت في حرب 73 معركة بالطائرات لم تحدث في الحرب العالمية؟

: ما أعرفه هو أن طائرة سقطت محترقة في حقل جدي الله يرحمه، كما حكت لي أمي.

:صحيح، المهم الطريق انتهي سريعا، الوقت معك له توقيت مختلف تماما، كل شيء يمر سريعا معك.

: دعه يمر سريعا حتى تلتحق بالكلية وتخطبني.

: صح، وبعدها نتمنى ان يتوقف الزمن.

كـان الفلاحـون فـي حقـولهم منكفئـون علـى العمـل، التفـت "يوسـف" وقـال: تـذكرت لمـا كنـت طفـلا صـغيرا فـي رفقـة والــدي بالحقل،وكنــا فــي شــهر طوبــة والمطــر عزيــر يهطل،كنت جريئا جدا، قفزت بثيابي بالمَنْصَل_جدول المـاء_ فنهق الحمار وانتبه والدي إليّ، فأقبل سريعا وأخرجنـي من الماء وجعلني في كومة قش كي لا أبرد، يومها كنت أرتجف مـن البـرد وشـعرت بـالموت، كـان شـعوري بالـدفـء حـين وصـلنا البيـت بعـد أن غيـرتُ ثيـابي وجلسـت أمـام النـار فـي الفـرن خلـف أمـي وهـي تطـبخ لنـا البطـاطس بـاللحم، كـان إحساسا يشبه إحساسي وأنا معك الآن.

: مممم، فهمتك، شعور بالدفـء والاحتواء

:هـو كـذلك.، ونظـرا لبعضـهما نظـرة مليئـة بالحـب قبـل أن يفترقا كل نحو بيته..

ظـهر الشـيخ"عبـد العزيـز" قبالـة "يوسـف" فجـأة وهـو يلـوح

بيديه لعبير من بعيد، قال له الشيخ واعظا وهو يربت على كتفه: يابن عوضين اتق الله هذه لا تحل لك، أترضى أن يفعل أحد مع أختك هذا؟

نظر إليه يوسف بغضب وقال: أتقي الله وأرضى أن يفعل أحد مع أختي...، مالك ياعم الشيخ؟، تظن أننا كنا نمارس الزنا؟

: أستغفر الله، يابني هذه مقدمات، وانت شاب وهي فتاة والشيطان ينزغ دائما، أنا أنصحك وأنت حر في نفسك. ، وتركه وانصرف، وأخذ "يوسف"يفكر في كلامه باستغراب كأنه ارتكب جناية وليس حبا ينتهي بزواج.

.....

في البيت المجاور لبيت "يوسف" اجتمعت النساء لصنع

الكعك، فهناك عرس بعد يومين ببيت"عزيزة" جارتهم، لذلك ذهبت أمه _نعيمة_ لأداء الواجب، فهي معروف عنها أنها تجيد صناعة الكعك بشكل مبهر، بالتالي اتخذت منزلة الريس بين النساء وقامت بتوجيههن مما حاك في صدور بعضهن، فتغامزن في ضجر وقالت إحداهن: هي هاتعمل ريِّسه علينا؟

كانت أم يوسف تفهم إيماءاتهن لكنها لم تهتم بشأنهن، فمعلوم بأن الحسد موجود بين أصحاب الشيء الواحد، وكل مافي الموضوع انها تعلمت سر الخلطة من خالتها زوجة الحلواني الاشهر بالمدينة، كان "يوسف" يسمع الزغاريد ويسرح بخياله لليلة عرسه على عبير.

توجِّه عزيزة الحريم بقولها: اعملوا لكم همَّة يابنات الشغل كثير واليوم قصير.

وقالت أم يوسف لأخرى: قومي يافردوس قدام الفرن انت،

ارجعي يا سعاد انقشي مكانها.

همست "زينات" لصاحبتها "صفاء" وقالت: شوفي ياصفاء، كأن فردوس خبيرة في التسوية؟، ياخوفي من إنها تحرق الكعك وتبقي فضيحة، وهل سعاد ياختي هاتعرف تنقش؟، دي فردوس عليها نقشة اسم الله عليها، تكونش بس الريس نعيمة بتعطي أوامر وخلاص..

قالت "نعيمة": اسمعوا، احنا بنأدي واجب، وأي واحدة متضرره من النظام تقوم تمشي، بلا كلام فارغ.

نظرن لبعضهن ولم ينطقن بكلمة، وقامت صبية وتحزمت بين النساء وأخذت ترقص، بينما أخذت أخرى طبقا من البلاستيك لتطبل عليه و تراقصن وهن يغنين:

ياحلاوتك ياستفندي يابن عم البرتقان

ياحلاوتك وانت طارح في الجنينة في الأوان

عروستنا في بيت ابوها

أربعة بيزفزها

وعريسها يقول هاتوها

وحشاني من زمان

ياحلاوتك ياستفندي يابن عم البرتقان

ياحلاوتك وانت طارح في الجنينة في الأوان.

الفصل الخامس

بعد أن شبع الخواجة من أكلة السمك التي يتناولها يوم السوق

كعادته طلب كوب الشاي المخصوص من الخفير "خضر" وكان الخفير وقتها يتابع العمال ببستان السراية،حيث كانوا يقصون زوائد الشجر ويكسحون تحته، وكذلك رعاية الشتلات بالري والعناية المطلوبة.،صنع الخفير الشاي للخواجة ووضعه أمامه وجلس ليأكل ما تبقى من السمك، الخواجة من عادته يأكل ظهور السمك فحسب، ولهذا فالخفير يحصل على وجبة دسمة من ورائه دون عناء تفلية العظام، فما في بطن السمكة من لحم يحيط به شوك عظمي يضاهي ما في ظهرها من لحم أبيض نظيف بلا شوك، لكن الخواجة المُرفّه لا يحب التضحية لأجل بطن سمكة من الممكن أن يستبدله بسمكة أخرى ليحصل على لحم ظهرها، بالتالي لو أكل الخواجة خمس سمكات فالخفير يأكل نحو ذلك، مع الفرق بأن الخواجة يأكل الظهر بينما الخفير يأكل البطن، والسمكة المسكينة في تلك الحالة بين الخواجة والخفير لا تمت بأي صلة للمثال القائل " اللي له ظهر لا يُضرب على

بطنـه" بـل هـي بظهرهـا وبطنهـا وأحشـائها فريسـة للخواجـة والخفيـر ولا حـول ولا قـوة لهـا، أخـذ الخواجـة يسـأل الخفيـر وهو على كرسيه ممدا رجله قبالة وجه الخفير الجالس مربعـا على الأرض يأكل بنهم شديد.

: قل لي ياخضر، الشغل بالبستان تمام؟

: تمام ياسعادة الباشا، عملوا كل اللي قلت عليه لكن بـاقي لهم ساعة شغل نظافة

: تمام تمام

سأله خضر: قل لي ياخواجة، لماذا تهرس السمكة هكذا ولا تأكل إلا الظَهر فقط؟

ضحك الخواجة وقال وهو يتلذذ برشفة الشاي في فمـه: كـوب شاي عال يا خضر، النفس هي التي تأكل لا العين، أمـا مثلك يأكل ما تراه عينه، عينك فارغة يا خضر، ويضحك الخواجة

وهو يمازحه،ثم استأنف حديثه: سمك المرأة الغجرية جدا طازج ولذيذ، شوف ياخضر، الصواب اننا نأكل لما نشعر بالجوع، ونأكل بقدر ما نشبع، والشيء القبيح أن يأكل الإنسان ما يراه بلا جوع، وما يُفرض عليه بلا اختيار ورغبة، مثل الأرانب تأكل خائفة بالقرب من الجحور، الفلاحون هنا ياخضر يأكلون أي شيء، ويأكلون الزروع التي تملأ شطوط الجداول، بينما العمدة وشيخ البلد وكبراء القرية من العائلات يأكلون أموال الفلاحين بطرق رخيصة، ممكن يأكلوا الفلاحين نفسهم، تقولون أنتم عن ذلك: "ياكل مال النبي" صحيح خضر؟

ينظر الخفير للخواجة وهو لا يزال منهمكا في الأكل ويهز رأسه يعني صحيح،ثم يقول له كرد على تهكمه المهضوم: على فكرة يا خواجة حتى لو كنت آكل من أكلك فالسبب لأنني أحبك وأحب أكلك حتى لو كنت شبعان!

ضحك الخواجة وقال: انت طيب خضر،انت طيب، مش فيك خبث فلاحين كتير بعزبة الخواجة، يتملقون للكبير الذي يأكل مالهم بدلا من أن يأكلوا بطنه كما تأكل انت بطن السمكة، الفلاحون ياخضر مثلك في الاستقواء على أكل بطن السمكة،تتحكمون في بعضكم بلا شرف، وأقل خفير ممكن يضربهم على بطونهم لأنهم بلا ظهر، الظهر ياخضر ليس فقط قوة نفوذ أو مال، قوة الحقيقة والكرامة أكبر وأسمى، فاهم شيء أم أنك حمار؟

يبتسم الخفير للخواجة ابتسامة لا خبث فيها بل لأنه يحب الخواجة فهو يحب منه كل قول وفعل، يستأنف الخواجة حديثه شاعرا بالتسلية ويقول: عارف خضر، أنا فاهم كتير ان العمدة وشيخ البلد بياكلوا مال فلاحين، وبياكلوا من مالي أنا، لكن كلهم خدام وأعتبرهم أجراء عندي، وأنا يا خضر لا أحتاج شيئا لأني نزيه، بخلاف هؤلاء اللذين يملكون الكثير من الأفدنة ويمدون أعينهم لقراريط الفلاحين البسيطة، لماذا

تحكمون بعضكم بلا شرف؟

: ما خلاص ياخواجة فهمت اننا عديمي الشرف خلاص.

يضحك الخواجة حتى يكاد يسقط من الضحك من على كرسيه، ويضحك الخفير وهو يلملم العظم وينظف المكان بعدما شبع، يقول الخواجة له: اعمل كوب شاي مثل الكوب الذي شربته، واعمل لنفسك وتعال أحكي لك قصة.، ذهب الخفير ليعد الشاي، ولما عاد جلس ليستمع للخواجة كما يحب أن ينصت لحكاياته الغريبة والمثيرة.

فأخذ الخواجة يحكي:

لما وصل" يسوع" المسيح إلى مدينة أريحا كانت جموع الناس من كل مكان ينتظرون مقدمه عليهم، الكل في زحام شديد يريدون بركته، وكان هناك رجل غني جدا اسمه "زكًا" كان قصير القامة مثلك، كان يعمل رئيس العشارين الذين يجمعون الضرائب، وكان الناس يكرهونه لأجل هذا،

وكـان بـين النـاس يريـد رؤيـة المسـيح ويتبـرك بـه لكنـه لا يسـتطيع مـن قصـر قامتـه بـين الزحـام، فصـعد علـى غصـن شـجرة لكـي يـراه، لمـا رآه المسـيح نـادى عليـه وقـال بـأعلى صوته: يازكا، تعال انزل إليّ فسوف أحل عليك ضيفا الليلـة في بيتك.

تعجب الناس كيف يزور المسيح المخلص رجلا خاطئا في بيته؟!.

تعرف ان زكا كان متعجب مثل الناس أيضـا؟، ويسـأل نفسـه: كيف يزورني المسيح وأنا خاطيء؟!. وفي تلك اللحظـة قرر "زكا" إنه يتغير، فقرر يتبرع بنصف ماله للفقراء، وغيّر من نفسه وقلبه، وقال للمسيح بأنه سيعيد كل حق لصـاحبه وعليـه أربعـة أضـعاف.، المسـيح "يسـوع" كـان مسـرور بـه وقـال للنـاس: اليـوم قـد حصـل خـلاص لهـذا البيـت، يعنـي بيـت مـن يقصد؟

رد الخفير وقال: بيت ذكي.

فقال الخواجة: زكا يا حمار ، اسمه زكا، المسيح لم يكن مهتما بشفاء مريض أو إعادة بصر لأعمى أو إحياء ميت، المسيح جاء ليطهر القلوب ويجعلها نقية، قال: "أنا جئت لأخلص وأنقذ ما قد هلك". إبن الإنسان جاء يخلص وينقذ ما قد هلك.

انتظر "خضر" بقية الحكاية فاغرا فاه، لكنه فهم أنها النهاية وبالطبع لم يفهم "خضر" المغزى من القصة ولم يهتم، فقط يفكر في شيء واحد وهو أن يذهب للشيخ "ربيع" ليسأله عن تلك القصة هل حقيقة أم خرافة؟

.....

اليوم هي الذكرى الثامنة لنصر أكتوبر المجيد الذي استعاد فيه المصريون كرامتهم وأرضهم المغتصبة، يجتمع الناس

في مقهى "رمضان" بعد الظهر ليشاهدوا الاحتفال والأفلام الوطنية، الكل يشاهد العرض العسكري ويشعر بالفخر تجاه جيشه العظيم ورئيسه البطل الذي يجلس على المنصة بكل عزة وكرامة وثقة

يقول أحدهم: أول انتصار منذ سنين طويلة نتجرع فيها مرارة الهزيمة ..ياااااه!

: إن شاء الله لن نهزم بعد اليوم، والرئيس السادات رجل قوي وشجاع وسينقل البلد نقلة عظيمة إلى أفضل مكانة بين الدول، ربنا عوض صبرنا خيرا إن شاء الله.

تكثر التعليقات المندفعة من قلوب يملؤها الفرح والعزة، وماهي إلا دقائق وينقطع البث، وحالة من عدم الوضوح حتى ينتشر الخبر عن إصابة الرئيس بالرصاص، حالة من الفوضى في المقهى تتسلل إلي الشارع بل إلي القرية بل في غضون دقائق كانت الدولة كلها تقف على قدم وساق لمقتل

الرئيس في المنصة والعالم يشاهد، كيف حدث، ومن فعل هذا؟، الكل يتساءل.

ويعلق البعض ممن خدموا في الجيش ويقولون بأن العروض العسكرية لا تتم بأسلحة حقيقية فكيف تم تسريب السلاح لداخل العرض ومن المسئول عن هذا؟

يقول البعض أنها مؤامرة ضد الرئيس من المستفيدين ...!، وسرعان ما يستنبط البعض ويصدرون أحكامهم.

: الجماعات الإسلامية مفيش غيرهم الخَوَنة !!

: صحيح ..بالذات خطاب السيد الرئيس في مجلس الشعب وانفعاله عليهم كان واضحا جدا.

: أيوه صحيح، كان آخر خطاب له قبل الحادثة بشهر وهاجمهم في الخطاب وكان يقرأ من مقالاتهم في مجلة بيده ويسخر منها ويصفها بالسفه.

: إمممم عشان كده هما اللى قتلوه ..الخَونة !

يرد "محي الدين" ويقول :

والله غدا نعرف كل حاجه بالتفصيل، بلاش إلقاء التهم بدون أدلة.

ماهي إلا ساعات قليلة وقد سمع الناس بالقرية أن الشيخ "عبد العزيز" و"محي الدين" والأستاذ "عبد المنعم" قد اعتقلوا كما اعتقل أناس كثيرون في أنحاء الجمهورية، تعجب الناس من اعتقال "محي الدين" وتعاطفوا مع والده "أبو القمصان" الذى كان يصرخ وراءه في الشارع الكبير كالنساء، كذلك الأستاذ "عبد المنعم" لم يكن له نشاطات غير أنه ضحية وشاية ظالمة مِن مستفيد، مرت ثلاث أسابيع وقد تم الإفراج عنهم جميعا بعدما قضوا في السجن أياما وليالي ضمن إجراءات أمنية مشددة..

و تم تعيين "صوفي أبو طالب" فترة مؤقتة لرئاسة

الجمهورية ظلت لمدة ثمانية أيام حتى تم تعيين الرئيس "محمد حسني مبارك" نائب الرئيس السابق "محمد أنور السادات" رحمه الله، وهو من أمر بالإفراج عن المعتقلين على خلفية الأحداث، وقد كان "حسني مبارك" هو أول نائب رئيس يتم تعيينه منذ إعلان النظام الجمهوري.

شدد العمدة على الخفراء وقتها أن يتابعوا القرية ويرصدوا أية مخالفات، خشي العمدة على منصبه في ظل رئاسة جديدة وحكومة جديدة لا يعرف مصيره معهم كما توقع ،بينما الخواجة "سمعان" في سرايته لا يخرج منها ويتابع الأخبار في التلفاز دون أن يتكلم في شيء كعادته، بل منذ فترة قريبة كان يتكلم مع العمدة بشأن أنه يريد زيارة أبنائه باليونان لكنه لم يتخذ القرار بعد، واضطرته الظروف السياسية بالبلد لأن يؤجل السفر إلى أجل غير مسمى !!

في هذه الآونة كان "جودة" مختفيا منذ ثلاثة أشهر ولم يعد إلى القرية إلا في يوم اغتيال السادات في المنصة، حتى ربط البعض من الفلاحين ظهور "جودة" بما حصل للرئيس الراحل وقالوا:

هذا من شؤم ظهوره في القرية من جديد!.

كان الناس يعتقدون في الخرافات في القرية بشكل كبير خصوصا أنهم يعرفون صلة جودة بالجن والعفاريت، وكانوا يربطون كل حدث غامض وغير مفهوم بشخصية جودة الذي لا يعرف عنه أحد شيئا خصوصا تضارب الأقاويل حوله دون أن يعرفوا ما هي حقيقته؟، فقد كان يستغله العمدة مع الفلاحين للقيام بأعمال لا يطيقها الجن ويقول له: انت ياجوده تعتبر شيخ الخفر رقم اثنين في القرية.، فيرد ويقول:

لا ياعمدة مش شيخ الخفر، ولاحتي رقم اثنين.

يرد العمدة ويقول: أومال إيه ياجودة ؟

فيقول: أنا العمدة هنا.

فيرد العمدة ضاحكا: خلاص ياسيدي انت عمدة البلد، لكن تعرف تحكم القرية ياجودة؟

يرد جودة: طبعا احكمها، هو الحكم ياعمدة انك تقعد بالدوار وتبعت الخفرا ورا الفلاحين ويضربوهم لو ما نفذوا كل طلباتك؟!

ويغمز شيخ الخفر "سليمان" بأصبعه الإبهام في جنبه يكاد يمرره إلي كِليته ويقول له: من هنا ورايح تسمع الكلام يا"سليمان" ها ..تسمع الكلام، لأن أنا العمدة بحق وحقيق!

ينظر شيخ الخفر وهو غاضب، وقبل أن ينطق بكلمة يقول له العمدة

: اسمع الكلام ياشيخ الخفر دا العمدة، ويغمز له بعينه يعني لا تؤاخذه على كلامه فهو معتوه.

فينظر إليه "جوده" نظرة حقد ويُسرها في نفسه ولم يتكلم، فيلتفت العمدة "أبو الفتوح" إلى "جوده" ويقول له: عاوزك بقى ياعمدة جذعين النخله دول انت والرجاله تعرشهم علي الترعة عشان نعمل مَعَدِّيَّة هنا للناس وهاستلم منك الشغل يا عمدة.!

يرد جودة ويقول: كله تمام يابو الفتوح.

يضحك شيخ الخفر فيزغده "جودة" في جنبه مرة ثانية ويقول له:

مبسوط ياسليمان؟، مبسوط!

ولا انت ما بيكفيك انبساطك بالليل يا "سليمان"؟

غضب شيخ الخفر واحمر وجهه وانتفخت عروق رقبته وهو يسأله تقصد إيه بالليل ياوَلا!

ينظر إليه "جودة" من تحت لتحت ويتحرك ناحية العمل

بعدما علم أن الكلمة وصلت لهدفها، لكن شيخ الخفر كان مستفَزا من كلام وتلميحات "جودة" الغير مفهومة، ويصمم أن يعرف ماذا يريد بكلامه هذا؟

لكن العمدة "أبو الفتوح" يقول له: ياسليمان انت عارفه انه بيقول أي حاجة، إنت مالك مهتم بقصده ليه كده؟.

وكان العمدة من كبريائه يأخذ كل كلام "جودة" على محمل المزاح وكأنه يقول هذا صعلوك لا يرتقي لأن أهتم لكلامه أيا كان، ينظر شيخ الخفر للعمدة ثم ينظر ل"جودة" وينتهي الموقف.

كان الخواجة سمعان يمشي على جسر البحر آتيا باتجاه العمدة ناحية سرايته ومعه الخفير "خضر"، يقف الخواجه ليتحدث مع العمدة قليلا وأخذ العمدة يلومه على اتصاله بالمأمور وشكواه من سرقة قد تمت في مزرعته، وقال له:

ياخواجة نحن ما قصرنا في حراسة المزرعة، واللي حصل

كـان أول مـرة يحصـل، وبسـبب إنـك كنـت أخـذت الخفيـر "خضــر" معــاك وانــت بتــذبح الخــروف عنــد "ســعدون الجوهري" مثل ما نقل "سليمان" لـي، وطبعا "خضـر" هو المكلـف بالحراسـة وغـاب عنهـا بسـببك يـا خواجـة، يعنـي التقصير ليس بسببنا، فازاي تكلم البيه المـأمور واحنـا سُمعتنا كويسه من سنين طويلة ياخواجة وما في بيننا غير كل ود؟!

فيأخذ الخواجة في شرح موقفه ويتعلل بأنـه اتصـل بالمـأمور لمصلحة أخرى تخصـه، وجـاء الكـلام عن موضـوع السرقة بشكل عفوي وليس مقصودا.

يمر الموضـوع ثم يتبـادلان الحوار بشـأن الإنتـاج الزراعـي الخاص بأرض الخواجة والسعر المعروض من التجـار ومـن الجمعيـة وهمـا يسـيران معـا باتجـاه دوار العمـدة بعـدما أمـر العمدة شيخ الخفر بأن يظل مع الفلاحين ويراقبهم في عملهم.

وظـل شـيخ الخفـر "سـليمان" يُحـرض الفلاحـين علـى العمـل

الجـاد وسـط محــاولاتهم الفاشـلة، بينمـا "جـودة" ينظـر إليـه بشزر ولا يكلمه.

الفلاحون يحاولون رفع الجذع وقد نزل البعض في الترعة على الجانبين وكلما وجد شيخ الخفر أحدا يمر من الطريق إلا ونــاداه وجعلــه يخلــع ثيابــه وينــزل معهــم فــي الترعــة ويساعدهم، عمِلَ الفلاحون بجد حين أوسع شيخ الخفر أحدَهم ضـربا لأنـه انشـغل بقرمـوط تحـرك فـي المـاء أمامـه ناحيـة الجسر وراح يطارده، كان "جودة" يعمل معهم بجدية كاملة حتى استطاعوا بعد تعب ومشقة أن ينجحوا في أداء العمل.

يغيب العمدة ساعتين تقريبا يمر فيها علي الترع والحقول ثم يرجـع ليجـد الجـذعين مُعرَّشـين علـى حـافتي الترعـة كمـا ينبغـي، والغريـب فـي الموضـوع هـو مـا تناقلـه النـاس فـي القرية عن "جودة" بأنه رفع الجذعين بقوة مفرطة وخارقة وهذا بمساعدة الجن، ويزيد البعض في مقهى "رمضـان"

بقولهم:

لم يشعر الفلاحون بالجن الذي كان محيطا بهم أثناء العمل.، ويقسم أحدهم أنه شاهد فلانا بجانبه وتكلم معه رغم أن فلانا هذا يقسم هو الآخر أنه كان في الحقل بنفس الوقت ولم يكن معهم في الترعة!.

حقيقةُ موضوع علاقة "جودة" بالجن هو بسبب علاقتة بالشيخ "متولي"، هذا ما شهد به بعض الفلاحين حين رأوه أكثر من مرة أثناء خروجه من بيت الشيخ، والكل كان له عنده حاجة ولذا يذهبون إليه، حتى "عبد اللطيف" نفسه قد زاره أكثر من مرة ليسأله عن "سناء" و أولاده، وكان يخبره ذاك الشيخ المبروك _كما يقولون عنه_ أنهم ما زالوا أحياء، "عبد اللطيف" حكى تفاصيل زيارته وقال بأن هذا الشيخ طلب منه طفلا بالغا ذات مرة، فأحضر له طفلا لأحد أقاربه في القرية كان قد اصطحبه معه بحجة أنه سيذهب به في

نزهة بين الحقول، كان الولد يحب ذلك، ولذلك ألحَّ على والديه بالموافقة، ولما ذهب به إلى الشيخ أقعد الطفل وعزَّم عليه وتمتم بكلام غير واضح حتي غاب الطفل عن وعيه وإدراكه، لقد كان قلب "عبد اللطيف" يخفق بشدة وخشي أن يحدث أي مكروه للطفل ويفتضح أمر استغلاله له وتحدث المشاكل بينه وبين أهل الطفل.،ثم بعدما أخذ الدجال يتمتم بكلام غير مفهوم ثانية سُمع للطفل أنينٌ كأنين المريض،كان الشيخ "ربيع "يقول عن الكلام الذي يقوله الدجال أنه طلاسم وهي جمع طلسم، وهي كلمة مقلوبة أصلها (مُسلَّط) لأن السحر يقع بتسليط الجن على المسحور، هكذا كما يقول الشيخ "ربيع" الذي كان يلقب الشيخ "متولي" بالدجال، بينما الشيخ "عبد العزيز" يقول عن المتولى أنه ساحر مفترض حده في الإسلام أن يُقتل، رغم أن الشيخ "ربيع" كان يحذر منه ومن دجله وشعوذته دون التطرق لموضوع القتل الذي كان يتكلم فيه الشيخ "عبد العزيز"، ثم بعد ذلك أخذ الشيخ

"المتولي" يسأل الطفل ويقول له:

ماذا تري؟

فيخبره الطفل بما يراه ويصف له ماحوله!

ثم يسأله الشيخ أسئلة محددة، فيجيب الطفل عليه بانقياد تام.

ثم بعد ذلك نظر إلى "عبد اللطيف" وقال له :أبشر يابن هنادي، "سناء" وعيالها التوأم في مكان فيه بحر كبير لكن بينك وبينهم حفرة، قال عبداللطيف: تعجبت و سألته وأنا أتوسل إليه عن تفاصيل الموضوع: أرجوك يا شيخ "متولى" اعطيني أمارات لهذا المكان، وما تفسير تلك الحفرة؟

لكنه كرر كلامه وقال: بجانب بحر كبير وعمارات عالية وبينك وبينهم حفرة، وهذا كل ماعندي من أخبار.

كان "عبد اللطيف" منذ أن حدث ما حدث ل"سناء" وعياله وهو حزين جدا، ولم يكن على هيئته الأولى من الرصانة

بين الناس، رغم مرور أكثر من عشرين سنة على ما حدث!، فكثيرا ما كان يجلس وحده إما في حقله أو أمام الترعة يسرح بخياله، ويستدعي بذاكرته مواقفه مع "سناء" فتشتد عليه نفسه بالألم ويشعر بالذنب المختلط بالشوق والحنين ومشاعر أخرى قاتلة، فيهيج ويصيح متخيلا وجه "سناء" أمامه، فينادي عليها!

ويطلب منها أن تسامحه وهو يبكى، ويعتب عليها فِعلتها، و تارة أخرى يقوم بتوبيخها وشتمها منفعلا ثم يهدأ ويبكي بهيستريا ويصيح حتى ينتبه له الفلاحون في حقولهم، أو المارة في شوارع القرية بالقرب منه، فيذهبون إليه ويأخذونه إلى بيته وهو في شدة انهياره، وكانت زوجته الثانية امرأة عاقلة وناضجة بُحكم تجربتها الأولى وبحكم سنها.،فقد جربت الفقد هي الأخرى، ولذا كانت تحتويه في تلك الحالة وتُفرغ عليه من حنانها حتى يعود لطبيعته وتعرف معنى أن يغيب طفلان عن أبيهم سنين طويلة لا يعرف عنهما شيئا،

هل ماتا أو ما زالا على قيد الحياة، كيف حالهما وكيف يعيشان، ولأن "عبد اللطيف" يمثل لها فارقة في حياتها حيث وجدت فيه اختلافا كبيرا كان عليه مقارنة بزوجها المتوفى، فلم تمنعه كآبته من ودها والإحسان إليها، كانت نفس عبد اللطيف تفوح همًّا وتفور حُزنا، وهو مازال يرجو ويحلم بيوم يأتي يزول فيه همُّه، همُّه الذي يلازمه بفقد أبنائه وشعوره بالظلم تجاه "سناء"، ذاك الشعور الذي كان يشعر به كلما تذكر مواقف بعينها كان قاسيا فيها ووقحا معها، ومن عادته أنه كان يجلس وحيدا في الحقل ويأخذ بصوت النحيب والشجن ينوح بقصصه التي حفظها عن ظهر قلب من أبيه، حيث كان يصطحبه معه في كل مولد من الموالد في القرى القريبة والبعيدة، كانت الكلمات القاسية تخرج منه ينعي حاله كما اعتاد بطريقة تشبه الموال، كان الفلاحون يسمعونه في البر المقابل لحقله وهو يدندن بتلك الكلمات حتى قالوا: عبد اللطيف اتجنن.

يأتي "عبد الغني" مهرولا ويدخل على والده فيجده جالسا على حصيرة فيجلس بجانبه ويُقبله ويربت على كتفه، و يحاول إخراجه ككل مرة من حالة الهم التي تلازمه بأن يضحك معه بالنكات محاولا رسم الإبتسامة على وجهه، وينظر "عبد اللطيف" إلى ولده "عبد الغني" الذي صار رجلا يبلغ من العمر خمسة وعشرين سنة، فيشعر بالرضا على أن عوضه الله به ويبتسم، ويتجه بوجهه إلى ابنته "سُمية" وهي تضع له كوبا من الليمون متلهفة عليه مضطربة الفؤاد، فيطمئن قلبه ويهدأ ليعود لطبيعته، وهكذا يشغل المرء حاضره عن ماضيه، وينظر لما بين يديه فيطمئن له وبه عما فاته، غير أن ما فات "عبداللطيف" لم يكن مالا ولا فرصة عمل ولا فدان أرض، بل حبيبته "سناء" وطفليه.

.....

كان الفلاحون إذا علموا بوجود الحاوي في القرية يسرعون إليه لمشاهدة ما يقوم به من عجائب وغرائب كما تبدو لهم، فهذا الحاوي رجل معه قرد مربوط بسلسلة، يفعل الحركات المضحكة وينفذ أوامر صاحبه بالحرف، كان "رمضان القناوي" يقول متعجبا: القرد يسمع كلام صاحبه أكثر من عيالنا اللى ما بيسمعوا كلامنا!

سِمة أساسية لأي حاوي أن يكون له قرد أو أكثر، يتقافزون أمام الجمهور ويظهرون لهم الخنوع والخضوع لصاحبهم الممسك بسلاسل رقابهم، وذاك الرجل العملاق عاري الجذع مفتول عضلات العضد والكتف والصدر وبطنه متكسرة ولحمها منثني رغم عضلاته الضخمة بالذراعين والأكتاف

والصدر، ينام مستلقيا على المسامير المدببة البارزة من خشبة عريضة، ثم يقوم ويأمر أحد الناس أن يربطه بحبل وثيق ومن ثم يأخذ يتلوى كالأفعى وبحركات بسيطة يفك الحبل ليتعجب الناس ويصفقون له، وعن تلكم المرأة السوداء الغجرية التي تنفخ النار في مِشعل بيدها فترتفع النار بلسانها كأنها ظلة نارية فوق رأسها، فتظهر تفاصيل وجهها الأسود اللامع كأنها جان، في النهاية يخرج الحاوي من كيسته القماش حية عظيمة تتراقص على لحن مزماره الذي يعزف به وهو جالس متربع الرجلين على الأرض، والحية تشرأب برأسها وتتمايل بجذعها، كل ذلك والناس بين ضحك وتعجب ودهشة، ورهبة أحيانا، يدفعون ثمن ذلك لفتاة صغيرة منكوشة الشعر، تمر عليهم جميعا بصحن أو رِق ليضعوا فيه القروش المعدنية والورقية كمقابل لتلك الضحكات والمتعة، هذا الحاوي ومن معه جاءوا من سراديب في قاع المجتمع ليعرضوا على الناس ما يثير تعجبهم ودهشتهم، ومع أن

هؤلاء بأشكالهم تشعر بأنك تطالع أقواما هاربين من السجون وفارين من أحكام الإعدام إلا أنهم في نفس الوقت يرسمون البهجة في نفوس الناس وعلى وجوههم، ثم يكون هؤلاء الفضوليون من المشاهدين هم أيضا مصدر رزق لهم، تمر تلك الفتاة البائسة التي لم يكن لها حظ من طفولتها إلا أن تطوف البلاد في دائرة كبيرة لتطوف بصحنها في دائرة صغيرة لتجمع من فضل مال المتفرجين كي يعيشوا به، وهو مصدرهم الوحيد للحياة!

رغم أن غالب أهل القرية هؤلاء لا يحملون في جيوبهم مالا باستمرار، ولا تتعجب إن قلت ولا في بيوتهم ، وهذا حال أغلبهم!

أنا أتكلم عن ناس عزبة الخواجة، فهناك فلاحون في بعض القرى ينامون بدون عشاء، أو يُكملون بقية عشائهم بكاءً كما يقال. فأهالى عزبة الخواجة لا يدَّخِرون المال وليس هذا معناه أنهم مسرفون ومترفون، بالعكس، ليس معهم المال

باستمرار إلا إذا كان أحدهم متجها لشراء شيء للأرض أو للبيت، ويكون في أضيق الحدود، فالعُملة عندهم ليست سببا للرفاهية، وإنما وسيلة يلجأون إليها عند الحاجة المستحقة فعلا، فليسوا ممن ينفقون أموالا طائلة في شراء أحدث المَوْضات أو يصيحون وراء كل الصيحات الجديدة لكل عام، ولا يبحثون أو يهتمون بأفضل العطور ولا يحجزون في مصايف كذا وكذا السياحية!

هؤلاء يعيشون الحياة بآلية كاملة ويملكون في بيوتهم ما يعيشون به ويضمن لهم البقاء فحسب وليس ما يترفهون به، أهالي عزبة الخواجة لا يعرفون معنى الرفاهية إلا في يوم يكون البعض منهم في بحر جمصة كل عدة سنوات، لذا فلا غرابة إن كان عشاء بعضهم عبارة عن خبز وشيء من جبن قديم ونبات الرِجلة وغيرها من نباتات انتزعوها من الحقول، وكانوا بالنسبة للطيور مشاركين لهم في أقواتهم من الحقول، فهذا عشاؤهم في الغالب مع كوب شاي مغلي يكون بالنسبة

لهم كل شيء، و يوم أن يَذبح بعضهم طيرا من الطيور التي يربونها في البيوت يلزمهم ذبح أعداد تكفي لأعدادهم الكثيرة، وبشرط أن توزَع الدجاجة على أربعة أشخاص، وربما على خمسة إن حسبوا الأجنحة والرقبة والكبد والقوانص والأرجل جزءا خامسا يحظي به صبي أو فتاة صغيرة، لذا تجدهم كلما زاد عدد العائلة كلما قلّت نسبة الذبح عندهم وتباعدت فترات وجود اللحم في بيوتهم، وإلا فسوف يقضون على كل الطيور في فترة وجيزة، وتربية الطيور ووجودها في البيت يمثل لهم شيئا ذا قدسية، ربما زادوا علي الخماسية المقدسة عند القدماء المصريين تلك الواحدة لتكون سداسية مقدسة، وكان "عبداللطيف" يحكي لعياله عن ذلك فيقول: كانت جدتي إذا رحت أشتكي لها من ديك اشتد أذاه بقفزاته في وجهي وأنا طفل كلما دخلت الدويرة فأطالب برقبته كعقاب له، تقول لي: ياعبد اللطيف، تربية الطيور في البيت خير كبير وبركة يابني.، وتكتفي بتلك الكلمات بينما

أنتظر أي شيء، ولا تذبح لنا كما كنا ننتظر.، لكن لم تنجح تلك الطريقة في بيت أحد جيراننا، فكان إذا شعر أحد الصبيان الأشقياء باشتياقه إلى لحم الطيور سعى للحيلة حيث هي الطريق الوحيد لينال أمنيته، يمسك برغوثا من تحت وسادته ويضعه في أذن دكر البط، فيهيج دكر البط ويصيح ويلف حول نفسه في حركة دائرية ضيقة جدا وكأن قدمه مثبتة بالأرض ويدور بسرعة البرغوث نفسه كلما تحرك في أذنه الصغيرة، وفي هذا الوقت يستغيث الشقي بأمه أو جَدَّته التي حينما تسمع بأن طيرا في الدويرة به عِلة وأنه سوف يموت، إلا تهرول بالسكين بعدما تحد شفرتها على حافة المصطبة أمام البيت فتُحدث بالسكين صوتا وهي تحده يعرفه الناس، ويفهمون بأن دم طير من الطيور سوف يراق في إحدى البيوت، وما كان يخيب ظنهم وتنبؤهم بالطبع، فلا تمضي ساعة أو أقل حتى تفوح رائحة المرق في الشارع ليجعل الأطفال يجتمعون كالقطط أمام البيت، فقد كان عيش

الكثيرين في عزبة الخواجة على البطاطس المسلوقة المقلية في الزيت والأرز مع حبات الطماطم، أو ربما وضعوها مثل بقية الخضار في الصلصة المِسَبِّكة، ولأن البطاطس هي بالنسبة لهم كاللحم فقد كانت هي أكلهم الأساسي، وإنتاج الفلاحين منها غزيرا، فهو يعد ثاني أكبر محصول ينتجه الفلاح بمصر بعد الطماطم!

كانت النساء والأطفال وبعض الشباب يرابطون بأكياسهم وأجولتهم على حدود الأراضي الزراعية في موسم البطاطس ،فينزلون الأراضي كالغزاة للبحث والتنقيب عن حبات البطاطس الهاربة من الفلاحين و العمال بعد الحصاد والجَمع، كان الخير وقتها وفيرا جدا وبطيبِ نفسٍ من المُلاك خصوصا والناس بهذا الفعل يساعدون المالك في إخراج كل حبة بطاطس هاربة من الأرض كي تفرغ الأرض تماما، ومن ثم يتم تجهيزها لزرعة أخرى، وكان جمعُ أحدهم لجوال بطاطس يصيبه بفرح يشبه فرح المنقبين عن الآثار

إذا وصلوا إلى بوابة المقبرة، أو ساعة الوصول إلى حقل لم يسبقهم إليه أحد فتكون سعادتهم كسعادة علماء الجغرافيا حين يكتشفون قارة جديدة، وكما يساعد أبو قردان _صديق الفلاح _المُلاكَ في تخليص الأراضي من الحشرات، فكان هؤلاء كذلك يخلصون الأرض من أي حبة بطاطس كي لا تنبت من جديد وسط زرعة جديدة، لذا لا يجد المُلاك حرجا من تلك الأقدام الدائسة لأراضيهم، ويمضي كل إلى بيته بِجوال على كتفه مليئا بالبطاطس لينثرها تحت السرير كي لا تتعفن، ويجلب منها للأكل بحسب الحاجة، وهذا ينم عن كمية المحصول الوفيرة التي كان يتربح منها الفلاح وتمتلئ بها البيوت كمخزون وفير فائض!، وقس على ذلك كثيرا من المحاصيل الزراعية ومعها الفاكهة.

وعلى الرغم من أن هؤلاء الفلاحين الذين يشكلون تقريبا ثلثي المجتمع المصري يعيشون تلك الحياة البسيطة إلا أنهم أكثر من ينالهم الإهمال والتهميش بشكل كبير ويؤثر فيهم

أقـل الفسـاد، والفلاحـون هـم الفديـة المقدمـة بكـل خضـوع واستسلام في كل مرة يتحدث المسئولون فيها عن الإصلاح كما قال جدي لي من قبل وهو يشعر بالأسف، يقصد أنهم قرابين لكل إصلاح منتظر لابد له من ضريبة، أو ربما فساد يتسلل أثره ليجد له بيئة مناسبة في أوساط هؤلاء الفلاحين والفقراء.

أما الخواجة "سمعان" فمنذ أن ماتت زوجته كارولين التي كان يحبها حبا شديدا وهو يعيش لحاله، وقرر اعتزاله النساء، رغم أن أصدقائه بالمحافظات الأخرى مَن إن شاء تزوج من أقاربهم، فضلا عن أنه لا يجد مانعا من أي أحد في القرية إن أراد الزواج من نسائها، لكن الخواجة لا يريد الزواج واكتفى بالعيش وحيدا ويرى في الوحدة راحته، فهو رجل له قدْرُه بين أبناء القرية يستكثر بهم من قلة، ويستأنس بهم من وحشة، وكان يعاملهم كأهله وعائلته، وكان له أصدقاء من كبار عائلات القرية يذهب إليهم ويجالسهم

ويلعب مع أطفالهم ويمد يده في جيبه ويعطيهم حبات الحلوى، فقد عاش بينهم أكثر مما عاش في وطنه الأصلي، ويمتلك فيها ما لا يمتلكه في وطنه الأصلي.

الفصل السادس

لن أرحم أحدا يمد يده نحو المال العام حتى لو كان أقرب الأقرباء، إنني لا أحب المناصب و أكره الشللية والظلم واستغلال علاقات النَسب والقرابة ،ولن أقبل الوساطة، وسأعاقب لصوص المال العام، إن مصر ليست ضيعة لحاكمها كما أن الكفن ليس له جيوب.

حسني مبارك

.....

الناس في كل مكان بمصر في بيوتهم ووسائل مواصلاتهم وأماكنهم أينما كانوا استمعوا لهذا الخطاب الأول للرئيس الجديد "محمد حسني مبارك" عام 1981م

وكانت مقهى "رمضان" تمتلئ عن آخرها، وأنصت الفلاحون جيدا في شغف شاعرين بأمل جديد في تلك الكلمات التي تحمل وعيدا وتهديدا لكل مفسد في الدولة وهذا هو عين الأمل، خصوصا القِصاص من قتلة الرئيس البطل الله يرحمه.

في دوار العمدة "أبو الفتوح" يجلس شيخ البلد و الخواجة ومعهم المأمور وبعض ضباط الداخلية كزيارة مفاجئة أثناء مرورهم على القرية، وتحوّل ذلك المرور بقدرة قادر إلى وليمة بدوار العمدة، اطمأن بعدها العمدة على منصبه والإبقاء عليه، وقد تم الاحتفال اللائق بتعيين رئيس جديد،

وضمنيا كان الاحتفال كان لبقاء العمودية في حجر العمدة "أبو الفتوح" وكذلك شيخ البلد الذي سيشغل منصبه تقريبا إلى يوم القيامة، وانتهت مهمة شيخ الخفر "سليمان" الذي أصيب بوعكة صحية وتم نقله إلى المستشفى منذ عدة أيام ليكون الخفير "خضر" هو شيخ الخفر خلفا ل"سليمان" ويتم تكليف الخفير "فوزي الجابري" بما كان الخفير "خضر" مكلف به من حِراسة سرايا الخواجه مع خفير آخر لحراسة المزارع الخاصة به أيضا، رغم أن فراق الخفير "خضر" للخواجة يسبب له نوعا من الفقد، فقد كان يعتز ببقائه بجانب الخواجة جدا سيما معامَلة الخواجة له كصديق بكل تواضع ، ولولا أن "خضر" تمّت ترقيته ليكون شيخ الخفر لما كان الخواجة يرضى أبدا أن يفارقه، وطبعا العِشره لا تهون إلا على ولاد الحرام كما كان الناس يقولون في عزبة الخواجة.

وبالمناسبة حيث أننا تطرقنا لذكر ولاد الحرام فمن الجدير بالذكر أن نقف معهم وقفة لنعطيهم حقهم فهم يستحقون وقفة

وأي وقفة، فهم نوع معين من البشر في كل بلد وفي كل عصر وفي كل فئة في المجتمع، سواء في فئة الفلاحين أو الحرفيين مرورا بجميع الفئات حتى تصل إلى أكبر فئة، لهم أسماء متنوعة لكنهم من نفس تلك الفصيلة، تربطهم خصائص ولاد الحرام، فلو كنت مظلوما صاحب مَظلمة ما وأحببت أن تشتكي فالحذر الحذر من أن تكون مغفلا وتُقَدم شكواك لابن حرام آخر دون أن تدري، فربما إذا قَدمت الشكاوي فيهم إلي المسئولين الأكبر منهم فوجئت بأن بينهم أيضا ابن حرام في الرضاعة، فخذ حذرك منه لأنه سيقوم بوضع الشكاوي بالأدراج دون أن يعيرها أي اهتمام!

فابن الحرام من الممكن وَصفُه بأنه دودٌ يأكل القطن، وعفن يصيب البطاطس، وعطن يصيب الحبوب فى عزبة الخواجة، وحين تقع شكواك في يد أحدهم وقتها فيالتعاستك وقتئذ لأنك ستكون أنت ابن الحرام الحقيقي في نظرهم، وستجد الشكاوى التي قدمتها فيهم قد انقلبت إلى اتهامات

موجهة إليك لتُلاقي بها ما تلاقي!، وحينها سيخرج واحد منهم ببث التهم الموجهة إليك بين الناس ليلعنوك بجهلهم ويمصون الشفاه و هم يتغامزون عليك بقولهم: "ولاد الحرام لم يتركوا لولاد الحلال حاجة".

ولكن مع خطاب الرئيس "مبارك" المتوعد بحماسة وصرامة شَعُر الناس أن أولاد الحرام سيتم ملاحقتهم وسيجدون رجلا حازما هو ابن حلال (مِصَفِّي) سيقف لهم بالمرصاد ليقطع دابرهم ودابر صنيعهم و من يدافع عنهم أيا كانت درجته ومنصبه ومكانه وجنسيته، فهو الأمل الذي أعاد للناس أحلامهم التي هي في الأصل حقوق طبيعية يكفلها لهم قانون طبيعي يعرفه الأحرار الذين لم ولن يرضوا أبدا أن تكون أدمغتهم كالكرة الشراب يلعب بها أصحاب المصالح من الفسدة كما يلعب الشباب الكرة ويركلونها في جرن عزبة الخواجة، أو كسَّلة مهمَلات يضع فيها كلُ مار قمامته.

.....

بعد انهيارِ وعويلِ وصياحِ "نفيسة" الذي اجتمع عليه الجيران، جاء أبوها "عبد الحميد الفلاح" فورما أخبره أحد الصبيان بأن "اسماعيل" يضرب "نفيسة"، يدخل "عبد الحميد" بيت "اسماعيل" وهو غضبان بينما الجيران حول "إسماعيل" في الغرفة داخل البيت متعرق الجبين ولا يتنفس بشكل طبيعي كأن صخرة سقطت على صدره، يسأل "عبد الحميد" ابنته: مالك يا نفيسة إيه حصل؟

تبكي "نفيسة" بحرقة وتحاول أن تتكلم لكن دموعها تخنقها.، فيسألها أبوها بإلحاح، فتقول: إسماعيل دخل الدار عليا وانا كنت خارجة من الحمام، كنت بستحمى وشعري مفرود، وفجأة انهال عليَّ بالضرب وبيقول لي (يافاجرة)، ثم تنقطع نفيسه عن الكلام وتعصر عينيها وتبكي بحرقة.

وهنا شعر "عبد الحميد" أن صاروخا خرج من رأسه، وقال

فـي غضـب: يطعـن فـي شـرفك ازاي؟!، ويلتفـت فجـأة تجـاه اسماعيل ويقـول لـه: إزاي يـا اسماعيل الكـلام دا؟، دا يطيـر فيها رقاب!، ثم أطبق عبد الحميد في رقبة إسماعيل ويقول: هي حصلت الشرف يا قليل الأصل؟ بنتي أشرف من الشرف يابن الكلب.

وأخـذ النـاس يحـاولون منـع عبـد الحميـد عـن إسـماعيل وهـم يقولون له:

الراجل شكله تعبان مش قادر ياخد النفس يا عبد الحميد.، ثم يسـتجيب عبـد الحميـد لتهدئـة النـاس بعـد محـاولات أنهكـت قواهم ،بينما وقف رجلان موقفا جيدا بصدريهما في وجـه أم نفيسـة التـي جـاءت تُطـوي الأرضُ مـن تحـت قـدميها، وظـن الناس أن جريمةَ قتلٍ ستُرتكب ولابد في تلك الليلـة فـي عزبـة الخواجــة، وأن الجحـيم قـد جــاء ممتطيــا أقصــى درجــات جموحه، فاستطاعوا بعد جهد جهيد أن يصـرفوها ويصـرفوا

معها النساء وجلسوا للتحقيق، ثم يتبين لهم مع التحقيق أن إسماعيل قد شرب من المعسل المحشي بالحشيشة فوق طاقته في المقهى مع رمضان القناوي وأحد أصحابه التجار، مما جعله يهذي ويتخيل وتأتيه ضلالات جعلته يتصرف مع نفيسة على هذا النحو، وقد اعترف إسماعيل بذلك بعدما أفاق وكان كمن اصطدم برأسه في عامود إنارة على الطريق، كان البرد شديدا في ذلك اليوم ولم يكن هناك أحد في الشارع، وأخذ الجيران يُطيِّبون خاطر عبد الحميد ويقولون له: إسماعيل ليس كأي أحدٍ وهو أبو أحفادك ولم يعامل نفيسة بهذا الأسلوب من قبل، والموضوع كان فيه سوء تفاهم يابا عبد الحميد وربنا قدَّر ولطَف.،وكَثُر الكلام ولم يجد عبد الحميد إلا أن يسكت بعدما حلف بالطلاق أنه لن يترك حقه وحق ابنته مهما حصل.، ثم في النهاية بعد جهد جهيد يُصلح الناس بينهم جميعا وتعود المياه لمجاريها.

وفي الحقيقة كان موقفا طريفا جدا في تلك الليلة، وأصبح

الصباح يتحاكى الناس في الموضوع ويتندرون به في كل مكان بالقرية، واستيقظ رمضان صبيحة اليوم التالي ليعرف أن القرية كلها قد علمت أنه شرب الحشيشة ليلا، وعرف أن السبب هو إسماعيل الذي لم يكن معتادا على شرب الحشيشة من قبل، فأخذ يلعنه ويلعن سيرَته كلما ذُكرت أمامه من بعد ذلك الموقف، وظل إسماعيل طوال النهار في اليوم التالي سيء المزاج ولم يخرج من بيته وأخذ يُلقي باللوم على رمضان عما حدث منه ليلا، وصارت قطيعة بينه وبين رمضان الذي يري من وجهة نظره هو الآخر أن إسماعيل هو من تسبب في فضيحته بشأن حجرين المعسل، وكان يريد أن يمنحه دماغا فضائية يقضى بها ليلة مع زوجته نفيسة كألف ليلة وليلة.، لم يفق إسماعيل وتتوازن حرارته من جديد إلا بعدما بعث في طلب "أبو القمصان" الذي فورما علم بحالته حتى أتاه مسرعا وجلب له حقنة مضاد حيوي، وقامت نفيسة بتسخين كوب ماء في طبق من الألومونيوم

كما طلب منها لتعقيم السرنجةثم يستخدم بعض الماء في تحليل مسحوق الحقنة بعدما يبرد، ثم أعطى لاسماعيل الحقنة وأمره بالنوم ملفوفا باللحاف حتى يتعرق جسده.، سألتْهُ نفيسة بعفويتها: الحقنة هتقومه بالسلامة يابا الحاج ابو القمصان؟!

فرد عليها: طبعا يابت وهيبقى زي الحصان، دي حقنة واحد جرام بحاله.

كانت تخشى نفيسة أن يتعب إسماعيل ليلا، فساعتها لن تستطيع التصرف خصوصا أن القرية من بعد العشاء تكون ساكنة الحركة كالمقابر، ولم يكن عندهم في ذاك الوقت في القرية إلا طبيبا بيطريا وطبيبا بشريا واحدا وتخصصه باطنه، لكنه كان طبيبا ماهرا جدا يفزع إليه الفلاحون مهما اختلفت التخصصات، ويجدون عنده الشفاء بإذن الله ، ولو قال هذا الطبيب أن فلانا سيموت في هذا المرض حتما

ستتحقق نبوءته، لذلك كانوا يتعاملون معه كما كانوا يتعاملون مع الدجال _ الشيخ المتولي _ لكن هذا الطبيب لم يكن متواجدا باستمرار في القرية بل كان مشغولا معظم أوقاته في عيادته التي بالمدينة، ولم يكن في القرية أجزخانة ليشتروا منها الأدوية أيضا، بل كانوا يركبون الحمير ويذهبون إلى أقرب أجزخانة على الطريق بعد ثلاثة كيلومترات، وقد كان ذلك الأمر يشكل لهم كابوسا وناقوس خطر إذا مرض أحدهم ليلا، فكيف الحال لو كان طفلا صغيرا أصابته حُمي أو غير ذلك؟، حينها لا يَسعُهم فعل شيء إلا أن يُقلقوا الحمير من منامها كي تسير ثلاثة كيلومترات ليجلبوا أي دواء من الأجزخانة بناءً على شرحهم للحالة، فيُشخص الصيدلي ويعطيهم مُسكنا إلى أن يذهبوا به إلى طبيب متخصص عندما يطلع النهار، ربما شُفي المريض ومرضت الحميرُ من مشاويرهم بالليل وتلك مشكلة أخرى كبيرة لا تقل عندهم عن مرض أحدهم إذ لا

غنى عن الحمير أبدا، سبب تعب إسماعيل ليس لما شرب في المقهى، وإنما بسبب سوء نفسيته بعدما وضع نفسه بالأمس في موقف كهذا الذي حصل معه أمام عبد الحميد الذي قبل أن يكون والد زوجته لكنه مجرد مزارع أجير يعمل في أرضه بالأجرة، فكيف يسمح لنفسه أن يشتمه بابن الكلب؟، وكذلك أمام الجيران وأمام زوجته أم أطفاله، فموقفه كان محرجا جدا ولم يعتد عليه خصوصا وهو يعتني بهيبته ووجاهته أمام الفلاحين

.....

نفس المكان الكئيب الذي على الرغم من اتساعه إلا أنه صار لعبداللطيف سجنا مفتح الأبواب، نفس الجلسة التي اعتاد عليها منذ سنوات على كنبة خشبية قديمة مُسْنِدا مؤخرة رأسه على حافة الشُباك المفتوح، جاعلا ظهره للحياة التي لم تعد تُجديه نفعا، وبات يعيشها بنمطية كالآلة في إحدى المصانع بين الآلات، يضم إحدى ركبتيه إلى صدره ويُسدل

الأخرى على الأرض، ويمد يده مرارا إلى كوب الشاي الذي أمامه على المنضدة ليرتشف منه ارتشافة الألم، فقد صارت سنين عمره ومواقف حياته وكأنها تروسٌ تتقابل لتهرس عظامه وتلتهم بقاياه، مازال يشغله أمر طفليه اللذيْن لا يعرف عنهما شيئا مطلقا، ويستغرق في التفكير في تفاصيل وجهيهما وهما على السرير بجانب بعضهما يغنجان ويبتسمان له وهو يفتعل حركات بهلوانية أمامهما بمشاعر أبوِّية، ويتساءل كل حين:

ياترى هل أحياء أم أموات؟!

والإجابة علي هذا السؤال المُلِّح تعتبر فاصلا بين معركة الحياة والموت الحتمية داخل نفسه، فهو يقول:

لو عرفت أنهم ماتوا سأحزن بشدة، لكن على الأقل سيرتاح عقلي من التفكير في الاحتمالات الواهية المفتوحة.، لكن هل فعلا سيرتاح قلبه لو عرف أنهم قد ماتوا؟!

لعل عبد اللطيف يقصد براحة الدماغ هو أن رأسه ستكف عن عرض الاحتمالات اللانهائية، لأن كل احتمال يمثل له صورة خيالية تأخذه إلى المجهول ليسقط في ظلام دامس ولا يشعر به أحد، ويقتله فيه كل احتمال ألف قتلة، فلو ماتوا أين دُفنوا، وكيف ماتوا، ومتى ماتوا؟!، ثم يُضيِّق دائرة التفكير إلى أبعد من ذلك فيتساءل: ولو كانوا أحياءً فأين هم طيلة كل تلك السنين الماضية؟، وهل يسألون ويتساءلون عن هويتهم وعن والدهم؟.، ويا ترى كيف يعيشون، ومع مَن؟!

تساؤلات كثيرة ليس على أقلها أي إجابة، كانت أم عبد الغني في ذلك الوقت تقوم بإعداد أقراص الجِّلة _ روث البهائم _ وتضع فيها القش الذي يعمل عمل أسياخ الحديد في الخرسانة، ثم مع تعرُض تلك الإسطوانات للشمس تيبس وتجف بعدما يتبخر ما فيها من الماء، ثم توضع في الفرن لتكون وقودا، وأي وقود!

كان البيت الذي تتبرز أمامه المواشي هو البيت المستحق للحصول عليها لتصنيعها، لذلك النساء كن يفرحن حين يجدن أقراص الجِلة أمام البيت، وكانت تترك ما في يدها وتأتي لعبد اللطيف لتسأله إن كان يريد شيئا؟، كان يبتسم ويكتفي بالسؤال ويقول لها: لولاك ولولا وجود عبد الغنى و سُمية في حياتي لمُتُّ وألقيِت في الترعة كالبهيمة حين يلقيها أصحابها حين تموت.، كل مرة كان عبداللطيف يقابل فيها سليمان كان يشعر بالغضب والانفعال الشديد وكأنه يريد أن يقتله، لكنه أصبح ذو طبيعة بليدة وخاملة من بعد تجربته مع سناء، ولذا كان يكتفي بأن ينظر إليه باحتقار ثم يلعنه في نفسه ويبصق على الأرض بضجر كأنه يبصق بوجهه.

لقد كان من الممكن أن تكون حياته أحسن حالا، ويستطيع من خلال المواقف والعِشرة أن يُوقع سناء في حُبه ليصير الحب من طرفين لا من طرف واحد، أو على الأقل تتعايش معه في مودة ورحمة، كان من الممكن أن يحسن عشرتها،

بأن يضبط انفعالاته الغير مبررة ويتحكم في سلوكياته الغير آدمية، لكنه الهَوس والشك والمشاعر الرديئة التي تهدم أي علاقة بعد أن تقتل أي نوع من المشاعر النبيلة والعاطفة الحميدة، ليتك تصرفت بعقلانية يا عبد اللطيف، ليتك ما كنت أحمقا، ما كنت ستخسر سناء وتخسر راحتك لتلك الدرجة، فالسبب الذي به خرجت سناء من حبه متمردة عليه هو هذا النوع من الحب المدمر والذي صار مرضا قد نال منه وتفشي فيه حتى أصبح كشخص سادي، ولذا لم تتحمله سناء، وأبت أن تمثل معه دور الضحية، فهي رقيقة الطبع والقلب ليست مازوخية كي تتواءم مع شخص سادي، فإن كان الحب غير مُصَفي من شوائب المشاعر السيئة ومنها السعي للسيطرة على الحبيب برغبتك في الامتلاك والاستحواذ حتى تُفقده حريته، ليجد المحبوب نفسه عالقا بين الحب وبين الحرية التي هي فطرة جُبل عليها الإنسان، فبالتالي سيفقد الثقة في الحب ويرضى بالحرية ويرفع رايته أعلاها، وهذا

مافعلته سناء.

الفصل السابع

في شتاء عام 1982م كان المطر شديدا يهطل بغزارة، حينها كان الفلاحون قلقين على زروعهم، وكانوا يصعدون إلى أسطح البيوت ليصلحوا ثغرات المشمعات المفروشة عليها لتمنع تسريب المياه إلى داخل البيوت، فالقطط بمخالبها مع عوامل الجو وكذلك الفئران والعِرس قد أفسدت بعض المناطق الظاهرة من تحت القش من تلك المشمعات، وكان إذا هطل المطر بغزارة يكشف الماء ويحدد أماكن القطع ليسهل عليهم معرفته ومن ثم إصلاحه ما أمكن، في هذا الطقس لم يكن هناك طائر أو حيوان في الشارع، حتي الكلاب احتمت بالبيوت والزرايب ومداخل المنازل وأجران القش والعشش، في هذا البرد الشديد كان يستغل بعض الفلاحين حرارة الفرن وينامون فوقه لينعموا بالدفء بعض الوقت، وإلا فهناك طرق أخرى للتدفئة مثل إشعال النار في أواني واسعة وقَصْعَات وحُفَرويستدفئون بها داخل البيوت حين تستوي نارها ويخبو دخانها، كانت النساء تقول: شهر

طوبة تجعل الصبية كركوبة.، وهذا من شدة برد وغزارة مطر هذا الشهر، كما يقولون عن شهر أمشير بأنه شهر الزعابيب، وهي نوبات الرياح والمطر المفاجىء، ولم ينتهِ شتاؤهم إلا بحلول شهر برمهات الذي يسمونه آدار، ويقولون عنه أنه نصف الشهر مياه ونصفه نار.، يعني يدرك نصفه الشتاء وتهطل فيه الأمطار والنصف الآخر تكون الشمس حامية لاهبة، كان الأطفال عندما ترشهم السماء بقطراتها المداعبة يقفون على عتبة الدار ويغنون قائلين: علي يابو مخ خلي الدنيا ترُخ، علي يابو معلقه خلي الدنيا مزحلقة، علي يابو مركب خلي الدنيا تكركب.، ولهم أغنيات أخرى خاصة بأوقات المطر مثل: الدنيا بتشتي، واروُح لستِّي، تعمِّلي فطيرة، آكلها وانام...

قبل ذلك اليوم بعدة أيام كان الجو صحوا وكان المرض يشتد على سليمان ويجتمع حوله أبناؤه وزوجتُه وبعض أقاربه، ولم يذهب أحدٌ لزيارته إلا مَن كان له مصلحة أو قرابة أو

نسب من قريب أو من بعيد، وبعض هؤلاء يزورونه من قبِيل تأدية الواجب فحسب، و كان هذا المرض يشعره بأنه على أهبة السقوط في حفرة القبر فيشعر بالجزع ويرتجف حين تعرض ذاكرته أمامه جميع ما فعله من سوء طوال حياته.، لما أتاه الشيخان ربيع و عبدالعزيز زائريْن أخذ يتكلم معهما ويُسر إليهما بحديث، وكان قد أرسل إليهما من قبل ليأتوا إليه بصحبة عبداللطيف لكن عبد اللطيف رفض زيارته ولم تشفع لسليمان أي كلمات للترغيب من الشيوخ لزيارته، وكان سليمان يبكي لما لم يجد كثيرا من الخفراء أو شيخ البلد أو العمدة حوله بعدما أفني عمره في العمل معهم وتنفيذ الأوامر مهما كانت وإرضائهم بكل وسيلة.

وفي الوقت المعلوم عند وقت اصفرار قرص الشمس واختفائها خلف شجرة الصفصاف العملاقة فجأة تعلو صرخات زوجة سليمان و يعلوا نحيبها لتتبعها صرخات بناتها، ويعرف الناس حينئذ أن الموت قد تسلل لدارهم

وخطف سليمان من بين أهله، كانت أصوات الكلاب عالية بالنباح ردا على صراخ النساء، وفزِعَت الأطفال فى البيت من الصراخ وهم يشربون اللبن وبأيديهم كسرات الخبز الطرية،كانت النساء تحت البهائم في ذلك الوقت تحلب اللبن في طواجن فخارية، والفتيات كنَّ يجهزن العَشاء فتفوح رائحة البطاطس المسلوقة حين توضع في الزيت إلي الشارع، لكن مع صراخ النساء انقلب الحال وترك الكل مافي يده لينظر ماذا حدث حيث توقفت حركة شيخ الخفر الذي طالما كان يرغب في وقف كل حركة لأهل القرية نشوة بما لديه من سُلطة وإن كانت ضئيلة!

كان وقتها شيخ الخفر خضر يمر من الشارع الكبير متجها إلى بيته، فلما سمع نواح النساء هرول مسرعا باتجاه بيت سليمان، وكان أبو القمصان في قبالة وجهه آتيا لبيت سليمان ربما ليعطيه الحقنة في موعدها، فيسأله عن الصراخ ليخبره قائلا: يبدو أن سليمان قد مات، كنت عارف إنه بيقضيها

ساعات من امبارح، الله يرحمه فلا تجوز عليه غير الرحمة!

وما هي إلا دقائق وقد تم فَتح المسجد، ويُنادي المنادي في الميكروفون بأن سليمان انتقل إلى رحمة الله تعالي والدفنة بعد صلاة العشاء، كان الخواجة يستمتع في تلك اللحظات بمشهد المطر على مزرعته وهو يستمع لموسيقى الموسيقار ميكيس ثيودوراكيس المشهورة باسم موسيقى زوربا اليوناني، وهي عن رواية لعميد الأدب اليوناني نيكوس كازنتزاكيس، سمع الخواجة خبر موت سليمان واستقبله بلا مبالاة كما لو لم يستقبله، فالأمر لا يعنيه، بل تمعر وجهه غاضبا من سيرة الموت وهمهم يسب الموت وسيرته التي قطعت عليه استمتاعه بموسيقى زوربا المبهجة..،

كان رأي الشيخ ربيع بأن إكرام الميت دفنه والإسراع بتجهيزه فلا داعي لأن نتركه للظهر في اليوم التالي، لكن الأستاذ عبد المنعم كان واقفا وأبدى رأيا مخالفا، وهو أن يبيت في البيت ويدفن بعد الظهر.، وهنا نهَرَه الشيخ عبد

العزيز وقال له: طالما أهل الدين متواجدون لا يصح لأحد الحديث في أي مسألة تخص الشرع.، ورَد عليه الأستاذ عبد المنعم ردا لم يعجبه فكادت الأصوات تعلو ،لكن شيخ الخفر خضر قال له: اسكت يا عبد المنعم لا تتسبب في مشكله.، بينما الشيخ ربيع لم يرد، في وقت اغتاظ فيه الشيخ عبد العزيز وقال له: أنت تخالفني في أي شيء يا عبد المنعم رغم أن المسألة دين وليس طين.

وطبعا يريد أن يقول له خليك في الفلاحة والطين، لأن الأستاذ عبدالمنعم رغم أنه مدرس ابتدائي إلا أنه فلاح يزرع في أرضه.

في هذا الوقت كان الناس يوقدون النار للتدفئة أمام البيوت في طَست أو قصعة، ويتأهبون للدخول والالتفاف حول النار ولم يبالوا بالموت في تلك الأجواء، غير أنهم تأسفوا بمجرد كلمات، وهكذا يكون حال أصحاب السلطة على الناس حين

يموتون، تظهر الانطباعات الحقيقية التي كانت مختفية خلف التعايش والخضوع المُسبَب.

حالَ الطقسُ والظلامُ بين أن يحضر الناس الجنازة إلا عدد قليل جدا، كان في الجنازة بعض الخفراء والأقارب والشيخ عبدالعزيز والشيخ ربيع والشاب محي الدين بجانب يوسف الذي كان يسير بجانب جمعة ابن سليمان وهو يستند على يوسف ويبكي، وجماعة آخرون لا يتعدون العشرين شخصا وتتبعهم بعض النساء، كانت السماء قد أعطتهم مهلة للدفن وتوقفت عن إرسال المطر، ومشى الناس على أقدامهم في الوحل يحملون في أيديهم المصابيح.

خرجت الجنازة من المسجد تمر من أمام المقهى في طريقها إلى المقابر وقت أن كان عبد اللطيف ورمضان بالداخل، فقام رمضان بمواربة الباب بلا اهتمام، وذهب ليشعل النار ويدس فيها الفحم ليشربوا المعسل، بينما عبد اللطيف يصنع لنفسه كوبا من الشاي ويجلس أمام التلفاز ليشاهد المسلسل

الجديد، و رمضان يقول له: اخفض صوت التلفيزيون يا عبد اللطيف الجنازة تمر أمامنا.، فيلتفت عبد اللطيف له ويقول: يعني مات سليمان ولا نزال مطلوب نسكت عند مرور جثته كمان يارمضان؟!.

كان الموت بالنسبة للقرية عبارة عن شكل من أشكال الحياة، فقد كان الموت كثيرا ما يقع في أبناء القرية، ولا يمر ثلاثة أيام أقصى مدة إلا وينادي المنادي بالميكروفون داخل المسجد بموت فلان أو فلانة، وفجأة تجد سَيْلا من النساء يرتدين السواد ويأخذن في العويل والبكاء أمام بيت الميت لمدة أيام، ثم تنقص أعداد النساء شيئا فشيئا حتي يتلاشي السواد كما يتلاشى الظلام إذا تولد الشفق، ويبدأ الحزن في التلاشي مع النسيان ليأخذ الناس في حياتهم مجددا

.....

في هذه الأثناء كان يوسف من المفترض أنه على موعد

بصحبة والديه حيث التوجه إلى بيت العروس المستقبلية _ بيت عبير _ فلطالما حَلُم يوسف بتلك اللحظة وعمل لأجلها كي تبَر أمُّه بقسمها وتفي بوعدها الذي وعدته إياه من قبل، وكانت البهجة واللهفة في وجهه واضحة وعلى تصرفاته حتى غمزه أبوه وقال له هامسا في أذنه: خليك رزين وثقيل يا يوسف.

كانت عبير وقتها منتظرة لهذا اللقاء على أحَرِّ من الجمر، تقشر البرتقال واليوستفندي وتأكله في حجرتها وهي ممددة رجليها على الكنبة وهي تنظر من فرجة الشباك نحو الطريق، تتلهف لرؤية العريس الجائي بصحبة والديه وكأنها تتطلع لمستقبلها الآتي، وما إن رأت يوسف على ناصية الشارع حتى أخذت تضحك و تتقافز كالطفلة التي يصطحبها أبوها إلى المولد وهي تشاهد الأنوار والمراجيح والاحتفال

الصاخب.

يطرق والد العريس الباب فتشعر عبير كأن الطَرق علي قلبها النابض بقوة، وفتح والدُها الباب وخلفه الزوجة يقابلانهم في ترحاب وحفاوة شديدة: مرحبا بكم نورتوا الدار، مرحبا، البيت بيتكم اتفضلوا.

وبعد واجب الزيارة أخذ الرجلان يتكلمان في المضمون، بينما عبير في حجرتها تنتظر إعلان النتيجة الإيجابية، وما إن حصل ذلك حتى علت الزغاريد، فتنادي عليها أمُّها فتدخل عليهم بحياء بما تلبسه من فستان كان قد اشتراه لها أبوها في العيد الماضي ، واضعة على صدرها عقدا من الفالصو، لكنه كان لامعا كثناياها المتبسمة، تأتي تحمل الشراب على صينية نحاسية كلوْن العقد الذي لبسته بعدما حكَّت إبطيها بقشرة البرتقال التي كانت تأكلها منذ دقائق لتزيل عنها رائحة العرق الناتج عن التوتر والإرتباك،

وأخذت تقدم الشربات وسط نظرات دافئة عن قرب بينها وبين يوسف بعدما كانت النظرات عابرة الأسطح ورؤوس جماهير الكرة في الجرن.

الفصل الثامن

في نفس اليوم الذي قُتل فيه العمدةُ على حين غِرَّة كان ولدُه في أحضان عروسه التي تزوجها ليلة أمس، كانت ليلة صاخبة أضيئت فيها شوارع القرية الثلاث الرئيسة، واستيقظ النائمون من الكبار والمرضى والأطفال بأصوات المكبرات، وذُبحت رؤوس البقر والجاموس والخراف التي بالطبع وُزعت على الأهل والمعازيم الذين غرقوا في الصحون حتى شعروا بالتخمة والتعب، إبن العمدة وبنت شيخ البلد تزوجا بالأمس، ومُكنت علاقة الرجلين وانتقلت من العلاقة

الوظيفيـة أو الجـوار إلـي النسـب والمصـاهرة، القريـة كلهـا كانت على قدم وساق في هذا العرس الذي لم يكن له مثيل في القرية من قبل، فالخفراء طوال النهار مع الناس ينظفون الشوارع خصوصا الشارع الرئيسي الذي في قبالة الكوبري حيث الشخصيات المهمة والأعيان سيمشون به نحو دوار العمدة للتهنئة، تعلو سماء القرية أصوات المزامير والطبول وصهيل الخيول الراقصة، والأطفال تحاكي بحركات أرجلهم الخيولَ حين يحاولون تقليدها في براءة، فى وقت غرقت النساء بالداخل فى غَسل وتنظيف وتجهيز حجرة الضيوف والاستقبال، كان الفلاحون يفعلون هذا تقربا و تملقا إلى جناب العمدة كما لو أن عليهم فرضا مقدسا فرضوه على أنفسهم قبل أن يفرضه العمدة بنفسه عليهم، وهو خدمة حفل تلك الليلة..!

على أية حال، انصرم الليل ومسح ضوءُ النهار عن الحياة سوادَ الظلام بينما يستعد بيت العمدة ليبدأ يوم جديد تكون

بدايته زغاريد وتهنئة مع استعدادات النساء في بيت شيخ البلد والد العروس لذهابهم بالفطور إلى العروسين صباحا كعادة الناس، وما هي إلا ساعات قليلة حتى صاح البعض وتطاير الخبر:

العمدة أبو الفتوح اتقتل ياناااس، العمدة اندبح يا أهل عزبة الخواجة.

لقد سالت دماء العمدة في موضع أقدام الفلاحين وأمام الناس من حيث لا يتوقع أي أحد مطلقا، كان أبو القمصان يحلق رأس أبورشدي الذي يستعد لزيارة أخته المتزوجة بالمدينة، وسمع أبو القمصان الخبر فترك نصف رأس أبو رشدي بدون حلاقة واتجه ناحية تجمعات الناس، قالوا:

إن العمدة كان فى حالة جيدة رغم أن النعاس كان باديا عليه بعض الشيء، لاشك بسبب سهره في الحفل وعدم نومه بشكل كاف من عدة أيام، وهذا ما قد خدم القاتل الذي فورما

وجد العمدة يُطل إلى الشارع الكبير بالقرب من داره إلا وهجم عليه كالمفترس الذي طالت مدة مكثه يراقب فريسته حتى تحين اللحظة الحاسمة، كان الجو معتدلا والسماء مليئة بالسحب، ورائحة المياه الراكدة في الترعة القريبة نفاذة يحملها الهواء للأنوف، لقد انقلبت القرية وقتها رأسا على عقب، وألقى الخفراء القبض على القاتل الذي أرهقهم وأتعبهم حتى استطاعوا توثيق يديه ورجليه إلى أن تأتي عربة الشرطة، حينها كانت القرية كلها في هذا المكان وقد انتبهوا وتعجبوا لأمر القاتل الذي لم يتوقعوه أبدا!

أخذ الفلاحون ينظرون إلى بعضهم البعض ثم ينظرون إلى القاتل الذي كان يقاوم بقوة حتى أتعب الخفراء الذين تولوا مهمة القبض دون أن يتجرأ أحد من الفلاحين أن يتطوع بالتدخل، لم يثبت القاتل ويهدأ إلا بعدما ضربه شيخ البلد على رأسه ضربة قوية بمؤخرة البندقية ففقد الوعي واستطاعوا السيطرة عليه.

في هذا التوقيت كان يوسف وعبير ينزلان بصحبة والديها من سيارة أجرة عائدين من المدينة، والخواجة يمشي بخطى سريعة ناحية السرايا ليهاتف المأمور أو ربما الإسعاف ويتعجلهم بنفسه، بينما عبد اللطيف ورمضان وجماعة كانوا في المقهى فجاءوا مهرولين نحو مكان الحادث متعجبين من القاتل!

: مين دا اللي عمل كده؟

: مش معقول أبدا!

وصوت من بين الواقفين

: يجب أن تسرعوا به إلي المستشفي

: اتصلوا بالإسعاف

وأصوات أخرى تتساءل لماذا حدث هذا؟

ويتساءل الفلاحون:

ما الذي يكون بين العمدة وبين هذا الشخص كي يقتله!!

وبالتأكيد انشغال الناس بجريمة قتل شيء عادي لكن حادث قتل عمدة قرية الخواجة حادث خطير راح يتطاير حتى تناقلته الصحف والأخبار:

كيف لرجل مُكلَف بحفظ الأمن لا يستطيع أن يُؤَمِن نفسَه؟!

كان هذا عنوان لخبر الجريمة كتبه الأستاذ عبد المجيد صيام الصحافي المخضرم في جريدة (كل مساء) وأخذ يحلل:

[في حالة وجود مجرم واحد قاتل كان سهلا جدا أن يرتكب جريمته ويقتل العمدة "أبو الفتوح" في لمح البصر،رغم أن العمدة منذ سنوات طويلة في القرية آمن مطمئن على نفسه...]

إن العمدة بهذه الجريمة التي ارتكبت بحقه _ خصوصا والقاتل نَكِرة في المجتمع_ يدل على أن العمدة لم يكن سببا

مطلقا في أمن القرية، بل كان أهلها المسالمون هم سبب أمنها، وعند وجود الرغبة عند أحدهم لارتكاب جريمة قتل كان سهلا عليه أن يصل لأكبر رأس فيها ليجذها بأداة قطع الحشائش..!

وأخذ الناس يتكلمون بشأن تحليل ذلك الصحافي بعد ذلك ويقولون نفس الكلام ويرددون فقرات من المقال

: العمدة لم يكن أبدا أمان للقرية كما كان يفتخر بذلك أمام المديرية وأن ذلك هو سبب إبقائهم عليه في منصبه، وعلى الرغم من محاولات سليمان في تعكير صفو حياة الناس اليومية منذ أن كان خفيرا إلى أن صار شيخ الخفر إلا أن الناس كانوا أكثر سلاما وهدوءا، ويتقبلون كل معاناتهم بالصبر، لقد أحدثت تلك الجريمة تطورات في القرية لم تكن في الحسبان.

كان رد فعل الشيخ عبد العزيز هو :

لقد لعب القدر دورا مهما ربما لخير قادم لعزبة الخواجة والله أعلم.. !

أما عن القاتل فقد جاءت الشرطة وأخذته من المكان الذي تم التحفظ عليه فيه بدوار العمدة، ورغم رغبة أولاد العمدة في قتله لكن الخواجة وشيخ البلد وقفا موقفا آخر وكان رأيهم أن يتم تسليمه للعدالة.

.

الفصل التاسع

ظهرت مفاجأة قلبت القرية رأسا على عقب بعد اعتراف القاتل أثناء التحقيقات، أنصت وكيل النيابة للقاتل ليحكي له قصته كي يفهم منه كيف قتل العمدة وما دافعه، فيحكي القاتل كل شيء قائلا:

منذ سنين طويلة وأنا أعيش حياة سيئة بلا أب ولا أم ولا أعرف عن الراحة شيئا مطلقا، فقد كنت أحيانا أقوم من النوم لأجدني نائما في الأجران في أكوام القش مثل الكلاب، فلا أتذكر شيئا عن مجيئي لهذا المكان كما أنني لم أكن أتذكر شيئا عن مجيئي لهذا العالم أصلا، عشت على هذا النحو سنين طويلة لا أعرف عددها، وكنت آكل أي شيء، ربما كان فاسدا أحيانا، ولم أعرف الحنان إلا من أمي صفية التي تقيم في عزبة الشيخة حُسن، فهي التي كانت ترعاني، ومن

يوم أدركتُ وجودي في الحياة وأنا أعرف أنها أمي، فقد تربيت في بيتها سنين طويلة، ولما اشتد عودي ورغبت في الاستقلال تركت البيت لأغيب عدة أشهر ..

: أين ذهبت وقتها ؟

: ركبت القطار إلى بلد بعيدة، أعجبتني حين رأيتها وأنا أنظر من الشباك فنزلت إليها ،رأيت فيها حياة، وعشت في الأسواق المقامة هناك بشكل دائم أخدم التجار وأساعد المارّة، وكنت أحيانا أطلب الصدقة إن طالت مدة عطلتي من أي عمل واشتد عليّ الجوع، عموما وجدتُ أنها حياة أفضل مما كنت أعيشها في القرية...

: ولماذا عدتَ إلي القرية طالما كانت تلك الحياة أفضل؟!

: رجعت لما شعرت بالحنين لأمي صفية، مشاعر إنسان يحتاج لحضن، لكن ليس من أي أحد، فقط ليس هناك سواها تمنحني ذلك الحضن حتى وإن كان ذلك الحضن يبرد كلما

كبرت، أعود لأقيم معها عدة أيام ثم أركب القطار وأذهب إلى تلك البلد البعيدة مجددا وهكذا...، ولما كبرت في السن شعرت بإلحاح كأنني أريد أن أعرف من أنا؟، وهذا ما دفعني إلى أن أسألها كثيرا لكنها كانت تكتفي برد واحد ..

: ماذا قالت لك يا جودة؟

: تقول لي ماتت أمك وأنت ابن أربع سنوات وتركتك لي فجأة لأعتني بك وأرعاك، وكانت تعمل خادمة في دوار العمدة وهدان منذ أن مات أبوك، وتكتفي باللقمة التي كانت تضعها في فمك حتى تشبع.، ومع الوقت تعرفت على الشيخ المتولي في القرية التي بجوارنا وذهبت إليه أطلب منه العمل معه، ففهم قصتي وأدناني منه وكان يستغلني في قضاء حوائجه، حتى أنني كنت أقوم بالصعود فوق سطح بيته كل يوم مرات لأضع العلف والماء للطيور التي يربيها هو وزوجته،إمرأة سوداء الوجه كانت تجعلني أنظف البيت

وأملأ الفنطاس الكبير وأذهب لأشتري لها الطلبار وهكذا، أفعل أشياء قاسية أحيانا، وكانت أيضا بدورها قاسية في معاملتي هي الأخرى، لذلك كنت أكرهها بشدة لكني ما كنت أظهر هذا خوفا من الشيخ متولى، لأننى كنت أجد لي حياة مع هذا الشيخ وكنت في السابعة عشرة من عمري تقريبا

: وبعدين ؟!

: وكلما كبرت وجدت السؤال يلح عليّ بقوة، و في مرة من المرات سألت أمي صفية بإلحاح، فحكت لي عن والدي كثيرا وأنه قد مات من مرض شديد في الكبد، كانت بطنه كبطن امرأة في أواخر حملها، وكان فلاحا بسيطا ومسكينا بعقله كما كان الناس يقولون عنه وكما أخبرتني، وأخذتْ تحكي لي مواقف وأشياء حتي شعرت بأنني وقتها أتمني أن أموت مثلهم وأصبت بهيستيريا البكاء وانفعلت وتركتها ومشيت إلى المحطة لأركب القطار وأتجه إلى البلد الذي أخبرتك عنها ولكني سقطت على رأسي وأخذني الناس إلى

المستشفى وقالوا لي بعدها أنك كدت أن تموت تحت عجلات القطار، لقد سقطت من فوق الرصيف على القضبان ربما كنت أشعر بدوار في رأسي أو دفعني أحدهم في الزحام، لا أعرف، في مرة من المرات أخبرني الشيخ المتولي أنه من الممكن أن يعلمني كل شيء إذا تفانيت في خدمته، وهذا ما كان يجعلني أصبر عليه وعلى امرأته القبيحة، لقد أعجبني أمره وما كان يحظى به في المنطقة كلها، كان الناس يجلبون له الخيرات في أيديهم ويستمعون له ويصدقونه وينصتون إليه كأنه نبيٌ جاءهم من عند الله، أحببت أن أكون مثله وأحظى بتلك المكانة رغم أنني كنت أفهم حقيقة ما يقوم به عن قرب، وأعرف ما يدور في الخفاء وما لا يعرفه الناس، بينما هو لا ينتبه إلى مدى وعيي وفهمي لدقائق الأمور، كان كبقية الناس يظنون أني مجنون!

كنت بين هذا الرجل وامرأته، وبين أمي صفية التي ما كانت تسألني أين ذهبت وماذا فعلت، وأين ستذهب؟،ثم مع الوقت

انقطعُت عن الذهاب إلى الأسواق بعدما وجدت لنفسي مكانا أفضل بجوار الشيخ المتولي، خصوصا وأنا كنت آكل وأشرب جيدا وما كان ينقصني إلا أن أنام فى مكان نظيف فقط، فقد كنت أنام بأي مكان، في الأجران والمقابر والبنايات الغير مسكونة، وكنت أنام فجأة دون سابق إنذار وأنا جالس بين يدي هذا الدجال وحين أستيقظ يخبرني أنني قد غلبني النعاس، رغم أنني ماكنت أشعر برغبتي في النوم قبلها.

أخذ المحقق ينظر إليه بشيء من الفضول ليسمع إلى المزيد ويقول

: وبعدين يا جودة؟

: عرفت بعد ذلك يا باشا بأن العمدة وهدان كان قد اختلى بأمي بعدما كان يتغزل فيها كثيرا، وهي ما كانت تستطيع فعل أي شيء فهي ضعيفة ومحتاجة، ولم تكن برغبتها إلا

أنـه وعدها بـالزواج فـي السر لأنهـا كانـت جميلـة مهمَلـة وقد أعجبته، وكانت تلك حيلتـه ليقتـرب منهـا بعدما أيقن بإفلاتهـا مـن يديـه، أمـي كانـت شـريفة لكنهـا مسـكينة وضـحية تحـت سطوة هذا الظالم!

: كيف عرفت هذه القصة يا جودة؟

: إ

: اعترفت لـي أمـي صـفية بكل شـيء، هـي صـاحبة سر أمـي الوحيـدة، وقالـت لـي بأنهـا بعـدما حملـت بـى طردهـا العمـدة وهدان وهددها، وقال لها: لو تكلمتِ بكلمـة سـأقتلك.، وخافت أمـي صـفية عليهـا وسـاعدتها وحاولـت أمـي أن تـتخلص مـن حملها وحاولت أن تقتلني وأنا في بطنها لكنها لم تستطع ذلك رغم محاولاتها، لي نصيب لأن أعيش تلك الحياة الصعبة!

نظر له وكيل النيابة ويشعر برغبة في سماع المزيد: وبعدين يا جودة؟

استأنف جودة حكايته قائلا: حينها اختفت أمي في بيت صديقتها صفية وهى أرملة لا ولد لها، وبقيتْ معها حتى وضعتني في بيتها، واتفَقَت معها أن تقول للناس أنهما لقياني مُلقىً على الطريق، واصطنعتا تلك الحيلة بالفعل، ومن يومها عرف الناس عني أنني مجهول الهوية ولقيط بلا أصل ولا فصل، ومن يوم أن عرفتُ ذلك منها وأنا أستشيط غضبا و أشعر بعداوتي لكل شيء، ولم أهتم بشيء واخترت أن أعيش كالمجنون، رغم أني أفهم كل شيء يحدث من حولي وأفهم ما يحتار الناس في فهمه بعزبة الخواجة التي يأكل أهلها الطبيخ وينامون لا يعرفون شيئا سوى في الشغل و الأكل والشرب، لكن مظهري السيء وطريقة عيشي جعلتهم يقولون عني كلاما كثيرا، منه الصحيح ومنه ما تم تأليفه، ما كنت أهتم لشأنه بل كان أحيانا يكون لصالحي، لقد كنت أعرف أسرارا لا يعرفها أحد سواء وأنا أبيت في المقابر أو وأنا أتسكع ليلا دون همس في شوارع القرية ولا يعلم أحد

بوجودي

: أسرار مثل ماذا؟

: مثلا يا سعادة البيه، كانت مِرات عبودة الخفير تتسحب نحو المقابر ليلا لتقابل الخفير سليمان في المقابر ويختلي بها، وكنت أراقبهم وأشاهد كل مايفعلونه في الدقائق التي كانوا ينزلون ضيوفا عليَّ فيها، كنت أشعر وقتها بما يشعر به كل رجل لكنني كنت أستطيع تجاهل الشعور ونسيان الأمر وكتمه، فعندي ما يشغلني في أمر نفسي حتى وإن عُرضتْ عليَّ هذه الأمور، ومع ذلك ما كنت أتكلم أبدا بشيء، فقط كنت أقول فيما بيني وبين نفسي طالما هؤلاء يريدون أن يعيشوا مغفلين فلا معنى لأن أخبرهم بما لم ينتبهوا له، لأن الخفير عبودة كان على علاقة بواحدة من عجائز القرية الأرامل، وكانت تعطيه المال والبط والبيض، وكان أكثر الخفراء وشاية بالفلاحين لشيخ الخفر بيومي، وكان يتسبب لهم في مشاكل وإهانات، كنت أسمع كل شيء ويتكلم أي أحد

أمـامي وهـو يعتقـد أنـي مجنـون!، وكنـت أعـرف مَـن سـرق بهيمة نعمان التي اتُهم فيها الشاب الذي هو من عزبـة الشيخة حُسن ظلما، واللص الحقيقـي من عزبـة الخواجـة مـات السنة الماضـية فـي السـجن بعـد مـا تسـبب العمـدة أبـو الفتـوح فـي سجنه في قضية سرقة ملفقة للخلاص منـه، لأنـه كـان يتعـاون معه وخرج عن طوعه وبدأ يتكلم للناس فيما كان بينهما.

: وبعد هذه الحكاية الطويلة فكرت تقتل العمده ليه ياجودة؟

: كان الشيخ المتولي دائما يقول لـي أنـت ستقوم بعمـل عظيم ياجودة يوما ما سيهز البلد، حتـى أنـي كنـت أحـرق القش فـي الأجران وأفتعل المشـاكل بالقريـة وأفـرح لمـا أكـون سببا فـي انشـغال القريـة، كنـت ألاعـبهم لأننـي كنـت أشـعر ببغضـي للقرية، لا أحد لي فيها ولا شيء ولذلك كنت أبغضها وأبغض كل من فيهـا لكنـي أخفـي ذلـك، ولمـا وصـلت لمرحلـة اليـأس الشـديد ووجـدت أنـه لا قيمـة للحيـاة إذ لا أحـد يهـتم بشـأني، وكنـت أتـذكر أنـه لـولا العمـدة وهـدان لمـا جئـت لهـذه الحيـاة

التعيسة، ورغم أنني من المفترض إبنه لكني لا أشعر بذلك طبعا، بل كنت أشعر ببغضي الشديد له وتمنيت أن يكون موجودا أو حتى كنت عرفت الحقيقة وهو على قيد الحياة، كنت سأقتله بأشد من قتلي لأبو الفتوح كما قتلني وقتل أمي بقهرها قبلي، العمده أبو الفتوح لا يختلف عن الذي قبله، كان يجعل الفلاحين ينتخبون النائب الغلط ويهددهم بعرقلة احتياجاتهم، ويعدهم بكل ما لم يفي به هو وقريبه النائب الذي لم يفعل أي شيء للفلاحين ولا للقرية، وابو الفتوح كانت له علاقاته ومصالحه مع هذا النائب على حساب مصالح القرية والناس مغفلون لا يفهمون ما يدور بالقرية، والذي يفهم منهم يخاف بطش العمدة، وأبو الفتوح ربما كان يفعل مثلما فعل وهدان من قبل، ولا يعرف أحد بذلك كما لم يعرف أحد بما فعل العمدة وهدان مع أمي المسكينة، وهما من عائلة واحدة تسيطر على القرية من كل اتجاه، ولذلك فكرت في قتله، وأيضا لأنه كان يستغلني كبقية الناس كأني عبد عندهم

جميعا، وكأن العمدة الأول وضع البذرة ليحصدها العمدة الثاني، يكلفونني ل عمل شاق كما لو كنت شمشون الجبار الذي يقولون عنه، لقد فكرت أن أقتله ليلة عرس ابنه الذي كان يمشي نافشا ريشه بالقرية كذكر البط وكأنه يريد أن يعطيه الفلاحون التحية العسكرية، تمنيت ذلك كي يذوقوا جميعا شيئا من الألم ويعرفوا أن الفرح والسعادة ليس محصورا عليهم فقط، بل نحن أيضا بشر مثلهم نستحق الراحة وجلست أفكر وأفكر كيف أتخلص من أشكالهم، على الأقل لأشعر بالراحة شيئا قليلا، وهدان هو المتسبب في موت أمي ولم تجد أحدا ينتصر لها، ولولا صديقتها صفية لماتت وقتها، وليتها ماتت ومتُ معها في بطنها واسترحنا، حتى صديقتها قد خدمتها الظروف أيضا إذ كانت أرملة تسكن في بيتها الصغير مائل الجدران كحياتنا المائلة، هذا البيت كان هو مأوى أمي، بل كان سجنها الأبدي هربا من حكاية القرية، وهدان كان سبب وجودي في تلك الحياة

الصعبة بين البشر وأفعالهم الدنيئة وقساوتهم ولذلك يجب أن أقتله لكن كيف وقد مات؟

وهنا طرأت فكرة قتل العمدة أبو الفتوح لأنهم جميعا لا يختلفون عن بعض وربما يعرف قصتي ولا يبالي!

حتى وإن كان وهدان يعتبر أبويا لكني لا أعترف بذلك كما لم يعترف هو بذلك أيضا، وما كان أبدا سيعترف، ولذلك لم أفكر أن أثبت أني ابنه وأطالب بحقي، لقد فكرت أن أقتل العمدة ليلة العرس لكني رأيت تلك الليلة مليئة بالحراس والضباط وخفت أن تفشل خطتي ويقبضون عليَّ قبل أن أقتله، وفي الصباح كنت أراقب البيت حتى خرج، وبيدي الشرشرة التي سرقتها من جانب ماكينة الري، كنت أرى الفلاحين يضعونها بجانب الماكينات ويخبئونها بالقش بعدما ينتهون من تقطيع الحشائش، وانطلقت نحو العمدة ولم يخطر على بال أحد ممن حوله ما سأقوم به، ثم قمت بالهجوم عليه وقفزت على صدره وقمت بذبحة ووقفت مكاني ولم أتحرك،

ذبحته وأنا أقول لـه قلت لك أنـي أنـا العمدة يـابو الفتـوح، أنـا العمدة، أنـا العمدة ياوهدان، وكـررت كلامـي وشـعرت حـين كنت أقتله بأن العمدة وهدان هو الذي كان أمامي.

في أواخر التحقيقات هاج جودة وصاح بشكل هيستيري وهو يـردد ويقـول: أي عمدة يحكم عزبـة الخواجـة يستحق القتل، أي عمدة يستحق القتل فـي عزبـة الخواجـة، فدخل الحـراس ليجروه من المكتب إلـى الخـارج بعد أن ضـغط وكيل النيابـة علـى زر الجرس، ثـم توالـت التحقيقـات بعـد ذلـك، وتوافـدت الصـحافة لأخـذ معلومـات حـول ملابسـات الجريمـة، ومـع أن وكيل النيابـة أنصـت واستمع جيدا لاعترافـات جـودة لكنـه لا يحكم بالإنسـانيات وإنمـا بـالورق حيث هنـاك جريمـة وجـاني وضحية وأداة قتل واعتراف، حتى أن جودة وسط اعترافاتـه وضح بأنه ليس مجنونا وليس به عطب عقلي وهذا ما اتضـح من كلامه المنمق فـي سـرد القصـة بتتـابع للنيابـةَ ومـر شـهر ونصـف علـى ذلـك حتـى نطـق بـالحكم علـى جـودة بالإعـدام

شنقا، ما من أحد في القرية إلا وشعر بالحزن عليه بعدما عرفوا قصته الحقيقية، ولكن بعدما نام جودة إلى الأبد في قبره نومة هي أفضل من نومته التي كان ينامها في الدنيا، برغم أنه كان ينام في القبور وهو على قيد الحياة، كان الخواجة يشعر بالأسف الشديد ويلوم الإنسان الغير سَوِي والذي يعين الشيطان على أخيه الإنسان ويقول للفلاحين في سوق الأحد:

(لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، ولكن النفس لايقدرون أن يقتلوها، بل خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم) متى 1:28

ويردد الشيخ عبد العزيز كلام الله

{ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون} سورة إبراهيم.

وتتطاير الصحف والمجلات وتحوي نص التحقيقات وقصة جودة سفاح عزبة الخواجة كما روج لها بذلك العنوان الملفت

في منتهى التدليس،حيث لم يكن سفاحا وإنما قاتل بدافع هو في قانون الإنسانية يستوجب إعدام كل فاسد مفسد..، بينما الناس يبعثون لشراء النُسخ لقراءة قصة عجيبة كما لو كانوا يقرأون رواية مسلية مثيرة، ومن يوم حدوث تلك الجريمة وملابساتها التي ظهرت للناس كالكتاب المفتوح إلا صار هناك عداء بين أهل القرية وبين عائلة العمدة، وأقسم الفلاحون بأنه لن يكون عمدة البلد من تلك العائلة مرة أخرى ولو على جثثهم، فعائلة وهدان هي نفس عائلة أبو الفتوح فهم أولاد عم، وماكانت العمودية تخرج من تلك العائلة من سنين طويلة حتى حدثت تلك الواقعة بالقرية، وبقيت القرية بين الاحتمالين المترددیْن على ألسنة الناس وقتها بأن مصير حكم القرية بين عمدة جديد من خارج عائلة أبو الفتوح وبين نقطة شرطة تقوم مقام العمدة ويتم إلغاء العمودية بالقرية، ولكن لا خبر هناك يؤكد أو ينفي تلك الاحتمالات.

الفصل العاشر

منذ أن عاد "حسين" من السعودية في نهايات عام 1958م

وهو منشغل بعمله في المقاولات واهتم بتطوير نفسه في هذا المجال كثيرا مستعينا بخبرته التي حصل عليها في ذلك المجال أثناء عمله في الخارج، وكذلك من صديقه المهندس هشام والذي كان حسين يعمل ضمن فريقه في السعودية واستطاع كسب ثقته وثقة الجميع، وبالتالي بعد سنتين قضاهما في الغربة عاد ليعمل معه في مصر، ثم تطورت العلاقة بينهما حتى تزوج من فريال شقيقة المهندس هشام، كانت الإسكندرية محل إقامة المهندس هشام الشايب الذي تخرج من هندسة القاهرة منذ زمن، وتخرجت أخته فريال من جامعة الإسكندرية من كلية الآداب حيث كانت تقيم مع أهلها بالأسكندرية.، كان من شروط المهندس وقتها للموافقة على زواج حسين من فريال أن تكون إقامتهما بجواره ولا تبتعد عنه إلى بلد بعيدة، لأنه كان يعتز بها ويحبها ولا يستطيع فراقها طالما ليس مغتربا، وعلى هذا الاتفاق قد تم الزواج بالفعل ولم يجد حسين مانعا من ذلك، خصوصا وأن

حسين يهتم بالعمل من جهة، ومن جهة أخرى كان متمردا على العيش بالقرية، ولذا وافق بكل ترحاب على الإقامة بالإسكندرية أو حتى على أطراف الخريطة طالما يعيش في راحة وسلام.، وظل حسين متنقلا كل حين بين القرية لزيارة عائلته وبين ذهابهم هم لزيارته كل فترة مُحمَّلين بالحقائب الريفية المليئة بالخبز والجبن والفطير والطيور المذبوحة الجاهزة على الطهي وغير ذلك، كان لحسين وصديقه هشام مكتبا قريبا من محل إقامتهم وسكنهم في منطقة الإبراهيمية لكنهم كانوا يتحركون مع أعمالهم أينما كانت مثل البوصلة باتجاه الشمال، حتى وإن كانت تلك الأعمال خارج المحافظة أيضا، كانت إقامتهم بالأسكندرية بشكل دائم سيما السنوات الطويلة قد جعلته ينسى الغربة كأنه مولود من البداية في تلك المحافظة.

.....

ومرت الشهور والسنين وأنجب حسين من فريال ولدا وبنتا وفتح الله عليه وعلى نسيبه، وأصبح مكتبهما له صيت حسن بالمدينة وخارجها، وفي إحدى الأيام يقابل حسين بمحض الصدفة امرأة تشبه إبنة خالته سناء ،فقد كان يعرف قصتها وقصة هروبها بولديها بعيدا دون أن يعرف أحد لها مكانا منذ خمس عشرة سنة تقريبا، فأخذ ينظر إليها دون أن تنتبه له مُهتما بتفاصيل وجهها الذي رغم تغيُّر بعض الملامح إلا أنها لا تخفيها عن صورتها الأولى أيام أن كانت في عزبة الخواجة، ولكنه لم يستطع الحديث معها أمام الناس إذ ربما لم تكن هي سناء، فحينها يضع نفسه في مشكلة وسيجتمع عليه الباعة والشباب ويبرحونه ضربا ظنا منهم أنه يغازلها ويضايقها، لكنه مع ذلك يخشى أن تفوت عليه الفرصة إن كانت هي سناء بالفعل، ولو حتى كان الاحتمال ضعيفا إلا أنه قد يكون صحيحا وتكون هي سناء بالفعل بعد خمس عشرة سنة، لكنه لم يجرؤ على اعتراض طريقها أو أن يكلمها بأي كلمة ،فربما (يخلق من الشبه أربعين) كما يقال في المثل، ولكنه في تلك اللحظة قرر مراقبتها، و بالفعل أخذ حسين في

خفاء يتتبع تلك المرأة، وقد وجد من أحد الباعة حفاوة وقت دخولها المحل، وكانت تكلمه بشكل يدل على أنها تعرفه و يعرفها منذ فترة، وهنا فهِم حسين أنها تسكن قريبا من ذلك المكان، ففكَّر طويلا في أن يسأل عنها أحدَهم لكنه تراجع خشية أن يساء فهمه، فقرر أن يتبعها مثل مخبر سري للنهاية، على الأقل ليعرف مكانها الذي تقيم فيه بالتحديد ثم يسأل بعد ذلك من بعيد ويعرف هل إن كانت هي أم لا؟، كان قلبه يخفق بشدة حين رآها للوهلة الأولى، ومشيَ وراءها حتى دخلت شارعا فدخله تاركا بينه وبينها مسافة كافية لئلا تنتبه لأمره، وانقضت ربع ساعة في سيره خلفها حتى دخلت إحدى الأزقة بين عمارات مرتفعة، كانت شبابيك الأدوار الأرضية محمية بأقفاص الحديد، والأبواب غالبيتها موصودة كما لو لم يسكنها أحد،

دخلت المرأة من باب جانبي بجانب البوابة الرئيسية للعمارة، بجوار البوابة شباك في الأعلي مُوارَب يُظهر بصيصا من نور ، دخل حسين إلى داخل الزقاق كلِص وهو يلتفت حوله وينهض على أصابع قدميه لينظر بالداخل ويسترق النظر

بعدما دخلت وأغلقت الباب خلفها، ثم عاد حسين إلى بيته وأخذ يتحدث مع زوجته في ذلك الأمر، سيما قد حكى لها أثناء سمر حكاية ابنة خالته الهاربة بأطفالها من معاملة زوجها السيئة بدافع الحب.، أشارت فريال عليه بصرامة ألا يضع نفسه في مواضع الشبهة لربما تتعرف عليه ولم يكن لها رغبة في أن يعرف أحد مكانها، بل هذا بالتأكيد ما تريده سناء وإلا كانت ستعود يوما ما إلى قريتها لزيارة أهلها، وأشارت عليه أن يستعين بأخيها هشام خصوصا أن سناء لا تعرفه.، بالتأكيد لم يحكِ لفريال أي شيء عن حب سناء القديم له، وإلا كانت ستمنعه بإصرار عن مواصلة بحثه واهتمامه بشأنها.

.....

في إحدى ليالي الصيف حيث تداعب نسماته اللطيفةُ الناسَ حيث خرجوا للشوارع ويستمتعون بالطقس الجميل ويقضون أوقاتهم في المشي وبجلوسهم في المقاهي والكافيهات، كان

حسين وصديقه قد اتخذا لهما مجلسا في إحدى المقاهي القريبة من المنطقة التي تقيم فيها شبيهة سناء، وظلوا على هذا النحو عدة أيام يترددون على المقهى حتى صارت بينهما وبين أهل المنطقة مايشبه الصداقة بعدما عُرفت وجوههم وألِفَهُم الناس، وأراد حسين أن يسأل مباشرة عن المرأة الساكنة في العمارة بالشارع خلف المقهى، لكن صديقه هشام قال له : عليك بالصبر يا حسين فالتسرع دائما يجلب النتائج العكسية، علينا أن نتسم بالهدوء والتأني كي لا يلاحظ أحد من الناس فينا ما يثير فضولهم.

وبعد دقائق دخل رجل أربعيني قصير إلى المقهى، مربع الوجه له كِرش، ويرتدي جلابية قاتمة اللون، كان صوته عاليا، وعيناه ناعستان أميل إلى الحسن غير أنه أجعد الشعر،كان مهزارا يمزح مع الجميع، والكل يبتسم له عند رؤيته، ويتصرف كما لو أنه رئيس المنطقة كلها، جلس الرجل وطلب الشاي فجاء أحدهم وجلس قبالته ووضع

الطاولـة ليلعـب الطاولـة وقـال لـه: منتظـرك مـن امبـارح يـا ريس.، وأخذا يبتسمان لبعضـهما ويتمازحـان، ومِن طـريقتهم يتبـين أن بينهمـا وداً وصـداقة قديمـة، أصـوات الأغـاني تمـلأ الأسـماع مـن الراديـو الموضـوع علـى حامـل خشـبي علـى الحـائط، وهمهمـات الزبـائن تمـلأ الأسـماع عنـوة، عقـارب الساعة تقترب من التاسعة مساءً، فهمس هشـام لحسين وقامـا وانصرفا لبيوتهما،كان حسين يحكي لزوجتـه كل شـيء جديد بخصوص هذا الموضوع، فأخذت تسأله: مـاذا لـو كانـت هـي سناء؟!

فيقول: والله لا أعرف يافريال.، ويفكر مليا ثم يستطرد قـائلا: على الأقل أتيقن من أنها على قيد الحيـاة، وحينهـا نعـرف أيـن الأولاد الـذين لـم يعـرف عـنهم أبـوهم شـيئا منـذ سـنين طويلـة جدا، فكل مـرة أزور فيهـا عـائلتي بالقريـة إلا ويكلمـوني عن حـال عبـد اللطيـف وسـناء والعيـال، أمـا سـناء فقـد مـات أبـوهـا بعـدما اختفـت بسـنتين تقريبـا وكـان حزينـا عليهـا ولا يهنـأ

بحياتـه، أمـا خـالتي _ والـدة سـناء _ فقـد ماتـت بعـد زوجهـا بسنة، وسبحان الله!، ماتت في نفس اليوم الذي مـات فيـه بعد معاناتهـا مـع المـرض فتـرة طويلـة، وكانـت تتمنـى أن تـرى ابنتها قبل أن تموت، مسكينة خـالتي، لقد فعلت هـي وزوجهـا كل شيء ولم يتركا مكانا من الممكن أن تتواجد فيـه سناء إلا وذهبا إليه، وكم من محاضر على مكاتب البوليس لم تُجدهم أي جديد، ظلوا فترة يتنقلون بين الأقسام والمستشفيات عند سماع أي خبـر عـن العثـور علـى غريـق أو مجهـول، حتـى فتُـرت قـواهُم وضـعفت عـزيمتهم ورضـوا بـالأمر الواقـع وسلموا أمـرهم لله حتـى يقضـي فـي أمرهـا جديـدا. فلـو أننـي استطعت أن أقوم بتلك المهمة يافريال وأعيد سناء لأخواتهـا، وكذلك أبنـاء عبد اللطيف إليـه، لكـان هذا فضـلا عظيمـا مـن عند الله، رغم أن تلك مهمـة صـعبة جدا.، ثم التفت ببصـره ناحية المروحة وقال:

هـل تعـرفين أن لهـذا العـالم دوامـة تشـبه دوامـة البحـر

يافريـال؟، يشـبه دوران تلـك المروحـة بنـا؟، أو مثـل سـاقية تدور وتلف وسط الحقول!.، قالت له:

:حسين، عليك أن تخفف عن نفسك من وطأة التفكير تلك الأيام ويكفي انشغالك بعملك طوال النهار، وعموما الخير يقدمه ربنا.

.....

في الليلة التالية ذهب الصديقان إلى المقهى مجددا وجلسا يشربان القهوة ويتكلمان في تفاصيل مستجدات الشغل

: أسعار الخامات زادت ياهشام ولابد من عمل مقايسات جديدة، وكله بسبب ارتفاع سعر الذهب وتدني الجنيه مقابل الدولار،خصوصا بعد الثورة والحروب اللي تسببت في حالة التضخم و الدولار أوشك أن يكون بأربعين قرشا..!

: يارجل أنا اشتريت كيلو لحم بالأمس كان بسبعين قرش!،

الدنيا ولّعت، لكن لا تنسَ يا حسين بأنه وقت الحرب حصل بأمريكا هزة في سعر الدولار وانخفض 18 بالمئة لدرجة إن منظمة الأوبك رفعوا سعر النفط 6 بالمئة للتعويض لهذا الإنخفاض.

(وأثناء حديثهم يدخل نفس الرجل الذي رأوه بالمرة السابقة، وجلس مع صديقه وأخذا في لعب الطاولة كالعادة.)

: يا هشام سوف نخسر لو ظللنا بالأسعار الحالية، قلت لازم نعمل مقايسة جديدة بأسرع وقت.

: خلاص مفهوم أكيد الأمر يتطلب بعض الوقت والجهد منك فأنت جدير بهذا العمل.

: وهل هذا لا يتطلب منك مراجعة ما سأقوم به؟.، يضحك هشام ويقول: المراجعة للحصول على دقة أعلى وليس للشك في قدراتك يا بشمهندس حسين.

: لا يا سيدي، أنت المهندس وأنا فقط مقاول أو مشرف أو قل ماتشاء فأنا لست خريج هندسة مثلك، أنا دبلوم زراعة.

: والله هناك خريجين هندسة لا ترقى خبرتهم إليك عمليا يا حسين، والعجيب فعلا هو أنك تمتلك القدرة على فهم الهندسة بشكل سريع جدا تطبيقا وتنفيذا، ينقصك فقط أن تكون خبيرا بالتصميم المكتبي وتكون مهندس كبير.

: يابشمهندس أهم ماعندي هو أن نكمل بعضنا ليخرج العمل كما ينبغي، لذلك أنت ملزم بعمل مقايسة تراعي فيها فروق الأسعار حتى لا نضطر لإخراجها من جيوبنا.

وفجأة أثناء حوارهما تظهر المرأة شبيهة سناء واقفة قبالة الباب تشير بيدها لأحد بالداخل، فيَخرج إليها ذاك الرجل ويتحدثان لدقيقتين ثم يدُّس يده في جيبه ليُخرج مالا ويعطيها فتنصرف مبتسمة له،ثم يعود ليكمل جلسته مع صاحبه.

نظر حسين إلي صديقه هشام وهو يشعر بالتوتر الشديد وقد

هـمّ ليسـأل الرجـل عنهـا، إلا أن هشـام أمسـك بيـده وجذبـه، وهمس في أذنه بأن يهدأ ولا يتسرع.، وأخذ حسين يتساءل: ياترى من يكون هذا الرجل؟!، وهل هو يتصدق عليها أم أنـه يعرفها؟، وهل هي سناء أم تشبهها؟ أريد أن أعرف فما عدت أستطيع الصبر يا هشام.

كانـت أصـوات الجالسين بـالمقهى تشبه أزيـز النحل، تختلط همهمـاتهم بأصـوات كلاكسـات السـيارات بالخـارج، وفجـأة ينـهض حسين ويتجـه إلـى صـاحب المقهـى ويـدنو مـن أذنـه ويسأله عن المرأة، فيخبره أنها زوجة المعلم رجب، و يشير إلى نفس الرجل.، فَيَهِمُّ حسين ليسأله سؤالا آخر لكن الرجل راح يسـتأنف عملـه ويسـتقبل زبائنـه، كانـت قـد شـغلته تلـك القضية لدرجة أنه ما كان يستطيع التركيز في عملـه من شدة التفكير.

.....

مر يومان وعاد الصديقان للمقهى، وجاء الرجل وجلس ووضع صندوق الطاولة أمامه وأخذ يتلفت على صاحبه وهنا استطاع أن يتحلى حسين بالشجاعة و جلس فجأة على كرسي أمام المعلم رجب وقال له: تسمح لي ألاعبك دور طاولة يامعلم؟.

كانت تلك أول مداخلة بينه وبين الرجل بشكل مباشر متخذا ذريعة اللعب وبغية التسلي معه كوسيلة للخوض معه في أي حديث يقربه منه، ويرفع من بينهما الحواجز ليعرف بعد ذلك كل شيء، يفرك كل منهما الزهر ويلقيه، وأخذا يلعبان ربع ساعة حتى ظهرت المرأة من جديد ووقفت نفس الموقف بنفس المكان وأشارت إلى الرجل الذي كان وجهه ناحية الشارع بينما وجه حسين لم يكن ظاهرا من خلف إحدى الأعمدة التي كان يجلس بجانبها، قام الرجل وذهب إليها وتكلما، في تلك المرة لم يكن هشام مع حسين بالمقهى، ولما

عاد المعلم رجب وجلس للعب من جديد بادره حسين بقوله: ياأخي الحريم نعمة في حياة الرجل، وأخذ يتصنع أي كلام كمفتاح لأي جديد.، واصطنع حسين قصة من تأليفه وقال وهو يفرك الزهر ويلقيه:

في مرة كنت جالسا بمقهى تحت البيت الذي أسكن فيه ،ونزلت زوجتي لتسألني عن شيء تافه لا يستدعي نزولها، كانت بنفس وقفة زوجتك هذه بالضبط، وأخذ حسين يضحك ضحكة مصطنعة كي يخلق جوا مناسبا يهيء فيه نفسية رجب كي يطمئن للحديث بأريحية، ويبادره بأي رد يفهم حسين منه ما علاقته بتلك المرأة، أو يحكي له شيئا عنها؟

نظر إليه رجب وقال: عند الحريم يكون التافه عندنا هو موضوع مهم عندهم.، وهنا بدأ الكلام عن النساء وتفكيرهن وتبادلا الحديث وكثر الكلام بينهم، نادي حسين على العامل وطلب منه دور شاي ثان، إطمأنا لبعضهما، وأعجب رجب

بشخصية حسين فاختار أن يرفع الحواجز من بينهما،خصوصا وهما يلعبان الطاولة ويحكيان في شئون النساء!، فحكي له رجب أنه صعيدي الأصل ويقيم بالأسكندرية منذ ثلاثين سنة وقد كان أبوه يعمل في الإسكندرية ومن ثم اصطحبه معه للعمل حتى كبر، وأصبح من أهل البلد يعرف فيها كل شيء، ثم صمت المعلم رجب فجأة، ثم قال متنهدا:

الله يرحم الوالد، مات منذ ثلاث سنوات.

ثم حين رأى حسين أن باب الحكاية قد فتح على مصراعيه خشي أن يغلق فجأة فبادره بسؤال ضمني بين ثنايا الكلام وقال:

الله يرحمه، والحمد لله إنه جعل لك سكن وزوجة قبل موته.، رد رجب وقال:

أنا تزوجت وانا عمري عشرين سنة وعندي ثلاثة أولاد

منهم بنت واحدة.، قال حسين له: يبدو ان زوجتك هي الست اللي بتيجي تناديك؟.، رد عليه وقال: نعم هي.

: وياترى تزوجت من الإسكندرية، أم أنك تزوجتها من الصعيد كما هو الحال عندكم ،تحبون بنات أعمامكم وأخوالكم؟!

واصطنع حسين ضحكة وكأنه لم يسأل وإنما يمزح معه ويداعبه، وقت أن رمى المعلم رجب الزهر فقفز على الأرض، ولكن الرجل ضحك بدوره ونهض واقفا وقال: يبدو أن الحظ ضدي، عموما بالإذن ياهندسة لأني محتاج للنوم، فاليوم كان مليء بالحركة مع الزبائن هنا وهناك، والكلام مع الزبائن مثل النحت بالصخر، لا تؤاخذني ياريس ونكمل الحديث غدا إن شاء الله منتظرك ياواد عمي.

وينصرف رجب بينما حسين يشعر بالضجر إذ أنه لم يحصل على ما كان قريبا جدا منه من النتيجة، لكن لا بأس فللحديث

بقية.

الفصل الحادي عشر

بعد مقتل عمدة قرية الخواجة تم تكليف شيخ البلد بالقيام

بمهام العمدة لحين تعيين البديل، وكان الفلاحون منهمكين في أشغالهم خصوصا وأن زرعة القطن قد ملأتها الدودة وانتشرت فيها، وأن المحصول بات مهددا بشكل مفزع، ويُرجع الفلاحون ذلك إلي شؤم مقتل العمدة، وبالطبع هم من يرون الأمور ليس بالمنطق، وإنما بالعاطفة حتى لو كان العمدة في حياته يكدِّر عليهم حياتهم،فالتخمين والوهم يتسلل إليهم كثيرا في كل شيء، كما تكثر فيهم الإشاعات!، وكان البعض منهم عقلانيين ويرون أن السبب هو إخفاق شيخ البلد بأن يضبط وينظم حركة توزيع الأسمدة من الجمعية الزراعية، والتي تدخلت فيها المحسوبيات وأصبح بعض المُلاك من الفلاحين الكبار والعائلات يأخذون حصصا غير حصصهم باللعب في الدفاتر والسجلات، وهذا ما جعل كثيرا من الفلاحين لم يحصلوا على حصتهم، خصوصا الأسمدة المدعمة لزراعات محددة مثل الأرز والقطن، وبالطبع الحجج كثيرة وكانوا يتفننون في تلفيقها، وهذا ما كان يزيد

من غضب الفلاحين الذين كانوا يتجمعون عند شيخ البلد ويشجبون ويندددون بما يحدث، ويقولون بأن العمدة أبو الفتوح رغم قسوته إلا أنه لم يكن ليسمح بذلك فى عهده، وكانت الأرض والزراعة عنده محل اهتمام عن هذه الأوضاع الحال.، وبالطبع يحاول شيخ البلد تهدئة الفلاحين وهو يقول: إن شاء الله الوضع هيكون تمام والتقصير مش من عندنا، والمشكلة تنتهي قريبا واطمنوا.

فيقول أحد الفلاحين: الأمور كانت تسير بشكل أفضل من الوقت الحالي يا شيخ البلد، وكانت الجمعية الزراعية هي أمنا وأبونا ومصدر أمن للفلاحين، عاوزين نفهم إيه اللي اتغير يا شيخ البلد؟

يرد شيخ البلد: ياجماعة انتوا ناس أصحاب حيازة ومعكم بطاقاتكم، روُحوا للجمعية واصرفوا مستحقاتكم وحقوقكم.

فيرد أحدهم بضجر: روحنا كم مرة ومفيش فايدة، وانت

المسئول عنا ياشيخ البلد.

الأستاذ عبد المنعم كان منفعلا يحاول كظم غيظه لكنه لم يجد بدا من الكلام،فقال: من يوم ما عملوا قانون إنشاء بنك التنمية والائتمان الزراعي وهمَّا أثروا في الجمعيات، وأعتقد سوف تتحول الجمعيات إلى سجون لتأديبنا بهذا الوضع، نشتكي لمين يعني؟.

يضرب الفلاحون كفوفهم علي بعضها وهم يقولون لاحول ولا قوة إلا بالله ياناس، الله يرحم أيام زمان، الحياة كانت بسيطة وهادئة، إيه اللي حصل واتبدلت الأحوال؟.

كانت تلك هي قضية المزارعين الملاك والمستأجرين بل وحتى الذين يربون الماشية، كانوا أيضا أصحاب حيازة تمدهم الجمعية بالأسمدة والبذور والشتلات والمعدات وجرارات الحرث بأجور بسيطة، وكانت تلك الجمعيات من مهمتها أيضا أن تفتح قنوات لبيع المنتجات الزراعية للقرية

وغير ذلك من المهام الخاصة بها، بالتأكيد كانت تلك الجمعيات هي ملاذ الفلاح ومعشوقه الذي يعينه على كل شيء يخص الأرض والزراعة، وكانت الجمعية بها أكثر من خمس عشرة مهندسا زراعيا يستشيرهم الفلاحون ويرصدون الخطر فيما يخص الزراعة، وكذلك بها أطباء بيطريون يباشرون الإنتاج الحيواني وغير ذلك، كان عدد الجمعيات في تلك الحقبة وهي أوائل الثمانينيات قد بلغ 6334 جمعية موزعة على القرى عن 5.7 مليون حائز مزارع بحوالي 5.7 مليون فدان ويشكلون بأسرهم حوالي 47% من سكان مصر، ومع كل محاولات المزارعين الفاشلة وقلة حيلتهم في محاربة تلك الحيَل إلا أن الزرعة قد امتلأت بالدودة التي لم تكن تعرف لقرية الخواجة طريقا من قبل، حتى أن هذه الظاهرة كانت محط اهتمام الفلاحين في القرى المجاورة، حيث كان إنتاج القطن في عزبة الخواجة وافرا وكان الفدان ينتج بمعدل فدان وثلث فدان بالبركة، لكن

تغير هذا الواقع!، ومن بين الظواهر الغريبة التي طرأت على القرية هي كثرة الكلاب التي دهست الزروع والمحاصيل حتى سُمح لشيخ البلد أن يُوكل بعض الخفراء من يضرب الكلاب بالرصاص، وهذا بناءً على شكاوى الفلاحين الذين يخسرون بسبب فوضى الكلاب بالأراضي، فلك أن تتخيل ثلاثين كلبا يتقافزون ويلعبون في الحقل المزروع عدة ساعات، سيتحول الزرع إلى بقايا، في هذه الفترات كان الأطفال يحبون مشاهدة الكلاب وهي تفِر عند رؤية الصياد وهو يصوب البندقية نحوها ليصيب الهدف ويتمرغ الكلب على الأرض وهو يصرخ بقوة من شدة الألم إلي أن يهدأ مستسلما للموت، ثم يجره الفلاح لإلقائه إما في الترعة أو في مكان بعيد عن الحقل، وكانت الكلاب من قبل في تلك القرية أكثر وداعة ولطفا، وكأنها تعرف أفراد القرية واحدا واحدا!، ولم تكن الكلاب تنبح إلا على غريب أو على من يرتكب فعلا عدائيا نحوها، وعلى الرغم من أن تلك

الكلاب كانت موجودة بالقرية وهو شيء طبيعي جدا، إلا أنها لم تكن تدهس الزروع من قبل بهذا الشكل العجيب المبالغ فيه، وكأنها تقوم بشيء ممنهج لغرض معين، أو كأنها مأجورة لدهس الزروع وإتلافها من قِبل آخرين!، وأيضا ما يثير الغرابة أن غالبية الكلاب في القرية كانت صفراء اللون، يقول الفلاحون أنها كلاب حمراء، وكان قليلا ما تجد كلبا أبيض أو أسودا أو خليطا من اللونين الأبيض والأسود!، وأصبح من خلال مشاهد تثير حفيظة الإنسانية تُقتل الكلاب بالرصاص في حملة إبادة جماعية، وكانت تعلو أصوات الأعيرة النارية في سماء القرية، حتي أن كلب عبد الغني بن عبد اللطيف قد تم قتله ضمن الكلاب، رغم أنه لم يرتكب جُرما ولم يفعل سوءا، هذا ما قاله عبد الغني مدافعا عن كلبه في حالة هيستيرية وهو يشيح بيده إلى القاتل وسط تجمعات الناس دون جدوي، فقد مات الكلب وانتهى أمره، قال أحدهم: إنه كلبٌ وفيٌ جدا، وكان يصطحب النساء إلي

الطاحونة ويظل معهن حتى يعدن سالمات، وكان يُوَصل الزائرين إلي المحطة ويعود بعدما يحرسهم إلى نهاية الطريق، وكان طويل القعود أمام البيت أو في الدهليز ولم يكن كبقية الكلاب الضالة التي تتسكع في القرية وتملأ الجو نباحا مزعجا للناس وقت نومهم وراحتهم...، وكثر الرثاء لكلب عبد الغني أكثر من رثاء الناس وحزنهم على العمدة وعلى سليمان شيخ الخفر!

لم يكن حُب عبد الغني وتعلقه بالكلب شيئا فريدا، بل هو عادة الفلاحين في اقتناء الكلاب التي تحرس بيوتهم ومواشيهم، ولم يكن كذلك حزن البعض على كلبِه الذي قتل برصاص الغدر شيئا فريدا وغريبا أيضا، فحينما غرق كلب موسى بن الجوهري الجزار كان حُزن أهل البيت عليه كحزنهم على أحد أفراد عائلتهم الذين ماتوا، فأثناء ما كان ابن موسى يستحم في إحدى أيام الصيف الحار في شهر بؤونة مع الصبيان في البحر ويحمل كلبَهُ بين يديه ويقفز به من أعلي

الكوبري، إذ سحبت المياه الجارية الكلب تحت الكوبري فغطس في القاع ولم يطفو إلا جثة هامدة، ومع أنهم لم يلقوا بالا بانتشال جثة الكلب إلا أنهم حزنوا لأجله خصوصا أول ليلة لم يكن الكلب فيها موجودا كعادته في مدخل الدار، واختفى صوت الكلب في الدار ليعلو مكانه صوت بكاء ابن موسى حزنا على فراقه، وكان يقول لمن ينكر عليه حزنه: الكلب أوفى من كثير من الناس من حولي، ويعدد لهم مواقف الكلب معه ويقارن بين فعل بعض أصحابه وأفراد عائلته معه وبين فعل الكلب الذى كان أوفى منهم له، ثم يقول لهم أليس من حقي أن أحزن عليه أم لا؟

كان الشيخ ربيع يقول بأن الكلب الوفي أفضل من الصديق الخائن ويقول هذا كلام ابن عباس _الصحابي الجليل_ ، وأيضا كما ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان أن الكلب أوفى الحيوانات.

لكن رأي الشيخ عبد العزيز يختلف مع رأي الشيخ ربيع بشأن نجاسة الكلب، فقد كان يتحاشى ملامسة الكلاب له عند سَيْره في الشارع خشية النجاسة، ويقول هو رأي جمهور الفقهاء، وقد دار حوار بين الشيخين مفاده أن الشيخ ربيع يرى أن الكلب ليس نجسا وهو رأي الإمام مالك وبعض العلماء وهو الأصح بعد تفنيد أدلة الجمهور، لكن الشيخ عبد العزيز يقول له:

خلينا مع الجمهور أضمن يامولانا.، ويضحك الشيخ ربيع مندهشا وكأن الحق بكثرة الناس، ويقول له: أحيانا يكون الجمهور على الرأي المرجوح ياعبد العزيز، ادرس أصول الفقه قبل أن تختلف يا عبد العزيز.

لم يكن الأمر يتعلق بمعاملة الناس للكلاب في الأرياف والقرى فحسب، بل في دول العالم وفي الأكثر تقدما منها، ينفقون المليارات سنويا على الكلاب وعمليات تجميل تُجرى

لهـا، ففـي أمريكـا حسـب إحـدى الدراسـات أن 81% ممـن يربون الكلاب يسمون أنفسهم مامي وبابي للكلاب!

وحـوالي 40% مـن النسـاء مربيـات الكـلاب يعتـرفن بـأن الكلاب تقدم لهن الوفاء والاهتمام عن أزواجهن وعائلاتهن، وحسـب الدراسـة أنـه كلمـا شـعر الشـخص بأنـه لـيس سـعيدا منعـزلا عـن أهلـه نفسـيا يسـعى لاقتنـاء كلـب، والكـلاب تفهم ملامح صـاحبها وتعبيرات وجهـه وتتفاعل معـه، وهـي أكثر الحيوانات وفاءً.

دعونـا فـي هذا الجو المظلم السـيء وسط تلك الأعمـال الـلا إنسانية أن نتذكر بأسىً شـغيفٍ زمن الكـلاب الجميل، ووقت أن كانـت الكـلاب هادئـة ليسـت عدائيـة ولا تميـل إلـى الفسـاد والإفساد للزروع والمحاصيل، أين تلك الكـلاب الطيبـة؟، تم استبدالها بكلاب بنت كلب فوضوية ههه، فلكم أن تتخيلوا أن تلك الكـلاب من شـدة بغيهـا ووضـاعتها أنهـا كانـت تبـول فـي جماعات كأنها متعمدة علـى الغِلال الموضـوعة فـي الأجـران

تحت الشمس علي مشمعات، فيترك الكلب الفضاء الواسع من حوله ويقف على الغلال والحبوب ويرفع إحدى رجليه الخلفيتين ليبول عليها ويمضي لا يأبه بما فعل، وكأن القرية بمن فيها لا يحرك فيه ساكنا، ويوم الجمعة وسط اللعب تهرول الكلاب داخل الملعب لتفسد على اللاعبين هجماتهم المرتدة، ويحولونهم من المتعة للغضب والضجر ليسبوا الكلاب وأصحابها، وكانت شتيمة أحدهم في عزبة الخواجة جملة تقال وقت الضجر وهي (يلعن أبوك لأبو الكلب) اللاعبون يشعرون برغبتهم في الانتقام من تلك الكلاب السخيفة فيتركون الكرة ويمسكون الحجارة ليمارسوا نوعا آخر من اللعب وهو مطاردة الكلاب، لم يثبت على ما كان عليه من الهدوء إلا كلب عبد الغني، فلماذا قتلوه وسط الكلاب سيئة السمعة هذه؟، هل لأنهم يعاملونها بمبدأ (الحسنة تخص والسيئة تعُّم)،إنني أتذكر أياما بعينها كانت الكلاب فيها تتجمع لتلهو مع بعضها، حتى إذا وصل اللهو إلى الغزل

بين اثنين_ ذكر وأنثى_ فَهِم بقيةُ الكلاب المتجمعة حولهما أن بقاءهم غير مرغوب فيه بالقرب منهم، وعليه فلابد أن يتركونهما يمارسان الغزل والحب الذي يثير أحقاد بني البشر المحرومين، وتتأسف النساء عند مشاهدتهن لذلك دون أن يراهن أحد من خلف الأبواب المواربة والنوافذ ومن فوق الأسطح، بينما الصبيان يطاردونهم بالحجارة وهم يقولون: وِي وِي وِي وِي.، كما لو كانوا بوليس، ويطاردونهم بقوة لحيث ذهبوا حتى ولو خرجوا خارج القرية، كنت أتساءل في نفسي عن سبب هذا الفعل من ناس عزبة الخواجة بالكلاب؟، هل الصبيان ومعهم الشباب والرجال يقذفون الكلاب التي تمارس الحب مع بعضها بالحجارة لأنها تفعل ذلك في العراء دون خجل وهو ما يخدش الحياء؟، فلماذا يَحدث نفس السلوك منهم إنْ كانت الكلاب تفعل ذلك في الحقل بعيدا عن الناس أو في خرابة من الخرابات؟!.

واستنتجت هنا أن الأمر لا يتعلق بعراء ولا فضاء ولا حياء،

بل يتعلق بحقد دفين على الكلاب، وما تستطيعه من طول العملية والتي تثير حفيظتهم ويضربونها غيظا منهم وحقدا عليهم، وهنا استنتجتُ، قلت بيني وبين نفسي: هل يعقل أن تكون الكلاب قد قامت بثورة ضد ذلك النوع من العداء وهذا الحقد الدفين من البشر بأن دهست الزروع للفلاحين، وعليه فقد أعلن البشر الحرب البرية والتدخل العسكري لقتل الكلاب بالرصاص؟!، لست أدري!، ولست أدري عن أي شيء ستسفر الأحداث بعد هذا في عزبة الخواجة، وهل في جعبة الكلاب شيء آخر مفاجيء كَرَدة فعل؟.، الله وحده يعلم السر وأخفى.، ربما يستدعي الأمر إذا تطور لتدخل المروحيات التي تستخدم في رش الزروع بالكيماوي والمبيدات بأن ترش الكلاب بالرصاص أيضا؟!

.....

في منتصف عام 1982 م بدأت إجراءات تركيب بعض

الأعمدة في الشوارع الرئيسية كخطوة أولية لتوصيل الكهرباء للقرية في عدة خطوات دون الحديث عن الوقت المحدد!، ربما على خمسين سنة كما علّق رمضان بهذا الكلام وهو يقف على عتبة المقهى يراقب أعمال تركيب الأعمدة.

لكن البعض كان لهم رأي آخر وقالوا دفعة واحدة من منطلق تفكير واحد بنفس اللحظة: خلاص كده كده وصلت الكهرباء لبيوتنا، وكل اللي علينا إننا نجهز سلك بلمبه ومفتاح وبريزة على الأقل بسلك طويل ونوصلها بالسلوك المتصلة بين الأعمدة لنضيء البيوت بالليل، ثم نخلع السلك عند الفجر وقت ذهابنا للحقل وخلاص، وجزى الله الحكومة كل شر.

: لكن هذا الفعل قد يشي به الخفراء عند شيخ البلد ويتم معاقبتنا قانونيا وهذه قضايا ليست بسيطة؟

لكن رد أحدهم كان مختلفا لما قال :

ياعم الحاج انت عارف ان شيخ البلد لا يخرج من بيته ولا يتسكع في القرية كما كانت الأوضاع من يوم مقتل العمدة أبو الفتوح، بالإضافة إلى إن خضر شيخ الخفر ويعرف معاناتنا، وبالتأكيد هيعمل مش واخد باله، بخلاف لو كان الكلام دا هيحصل علي أيام سليمان الله يجحمه مطرح ما راح!.

: بالتأكيد كله كلام وفضفضة، ولن يجرؤ أحد على فعل هذا نهائيا.

: الخوف بالعين يا بلد!

: لا، ليس هذا خوفا، بل تحاشيا لأولاد الحرام.

: وأولاد الكلاب.

كان هذا حوار الفلاحين، وفي النهاية اعتمد البعض تلك الفكرة كإجراء مقابل وموازي لإجراءات المسئولين الممتدة إلي مئات السنين.

يقـول عوضـين: المصـيبة أن تكـون تلـك الخطـوة لا تشـمل توصـيل الأسـلاك بـين الأعمـدة ويـتم زرع الأعمـدة مثـل الخوازيـق فـي الطريـق الرئيسـي. وهنـا انفجـر الواقفـون بالضحك.، كانت فرحة يوسف بتركيب الأعمدة في الشارع الكبير لا توصف حيث أن إضاءة الشارع من خلال تلك الأعمدة ليلا تمنحه فرصة للعب الكرة ولو لساعة أو ساعتين أو يزيد، وكان موضوع الكهرباء هو حديث الليل داخل كل البيوت وخلف الأبواب المغلقة، يتم إشعال لمبة الجاز ويعلقونها على الحائط ثم يجلسون يتحدثون بعض الوقت بعد تناول العشاء إلى أن يغلبهم النوم، وكانوا يقولون لأطفالهم أن الكهرباء إذا تم توصيلها للقرية كلها سوف تفر منها العفاريت التي تظهر لبعض الفلاحين في الحقول ليلا، وفي الشوارع عند عودتهم منتصف الليل، وعند الطاحونة التي تجذب العفاريت فيها كل عام شخصا لتقتله تحت سيرِ الماكينة، وكذلك سيختفي الحديث عن النداهة التي كانت

تعرف مواعيد الناس حين يتواعدون بها سرا، فتذهب النداهة قبل الوقت بقليل وتنادي على الشخص فيظن أن صاحبه قد جاء في الموعد المحدد فيخرج إليها ويتبعها وهي في صورة صاحبه؛ حتى تذهب به إلى الساقية المهجورة، وبالصباح يتحدث الناس عن غريق في الترعة وضحية جديدة النداهة.، كان الأطفال يسمعون تلك الحكاوي ويشعرون بالخوف، ولكن يزيد تعلقهم بتوصيل الكهرباء التي بها تضاء شوارع القرية لتكشف عن الموجودات وتفضح لصوص البهائم من الدواوير وكذلك تحُول دون انتشار وتواجد العفاريت التي تخاف من النور كما تخاف من القرآن والأذان .

الفصل الثاني عشر

في ليلة مقمرة حزينة في عام 1959 خرجتْ سناء تحمل طفليها الصغيرين وتحمل على رأسها حقيبة الملابس وبعض الاحتياجات المهمة، تمشي خائفة تجر قدميها ويقتلها الحزن، وتتلفت حولها وهي تسير ببطء وتمهُّل حتى خرجت إلى الشارع الكبير، وكان الطفلان بيدها يبكيان كثيرا وسط محاولاتها لتُسكتهما خشية أن يسمعهما أحد ويعرف بأمرها، تملكتها رغبة تمرد ونقمة قاتلة قادتها إلى ما لا تعرف نهايته، حزن مكبوت وصرخات فراق بقلبها تُدوي وسط رغبة ملحة لئلا تلتفت لشيء يعيدها للوراء خطوة واحدة، عبَرت الكوبري إلى الأسفلت بين البحر والحقول، وهو

الطريق المتجه إلى طريق مدينة المنصورة بعد أربعة آلاف متر من مكانها، ويمر الطريق على بعض القرى المتراصة هناك، أخذت سناء تسير وهي تتلفت يمينا وشمالا، وتتخفى بجانب الشجر العملاق في الظلام واضعة يدها على فم الطفل الباكي حين ترى أحدهم جائيا من بعيد، وتنتظر شيئا يحملها إلى أي مكان، فأهم شيء عندها الآن هو أن تغادر القرية، وقفتْ نصف ساعة رهينة الانتظار حتى مر جرار زراعي في طريقه، وقف الرجل الغريب يسألها عن مقصدها ووجهتها، فأخبرته أن والدها قد مات ولابد أن تكون هناك بالمدينة بعد ساعة، واصطنعت قصة تبرر الدموع السائلة على خديها والنعاس الظاهر علي طفليها والوقت الليلي الذي خرجت فيه للشارع، فركبت معه وانطلق حتى أوصلها للطريق المتجه ناحية المنصورة، قد كانت تأمل أن تجد وسيلة متجهة للناحية الأخرى حيث محطة القطار، لكن اهتمامها بأن تخرج من القرية كان أكبر عندها

من أي تفاصيل أخرى، ثم بعد دقائق من حسن حظها توقفت لها سيارة متجهة إلى المنصورة، فركبت معه متعللة بنفس ماتعللت به لسائق الجرار ، وانطلقت السيارة في وجهتها حتى أوصلها السائق إلى محطة المنصورة تطوعا مما رأي من بؤسها هى وطفليها الصغيرين في الليل، ومِن المحطة ركبتْ قطارا متجها إلى محطة مصر، ثم إلى الأسكندرية، هكذا كانت رحلتها دون أن تحددها بل كانت تركب القطار الذي يكون متواجدا بالمحطة أو الأقرب مجيئا، وكل ما في رأسها أن تبتعد بعيدا بعيدا قدر ماتستطيع ولا تفكر في أي شيء آخر، ربما ظنت أنها ستخرج هاربة من الكوكب إلى الفضاء الخارجي تمردا على تجربتها، كانت لا تكتحل بغمض خشية على الأطفال في الزحام ، ينام طفلاها في حجرها شاعريْن بالأمان إذ هو وطنهم الحقيقي مهما تنقل وابتعد، كان فاعلوا الخير من الناس في القطار والمحطات يساعدونها في حمل الأطفال أثناء نزولها من القطار أو

الصعود إليه وسط الزحام الشديد؛ فلم تكن معتادة على ركوب القطار والتعامل مع الزحام من قبل إذ لم تخرج من القرية لأبعد من خمس كيلومترات تقطعها بسيارة أجرة مع الأهل في زيارة الأقارب بالمدينة، تنظر إلى الحياة وإلى الناس بغرابة كأنها ترى خلقا آخرين بأشكال و طباع وسلوكيات مختلفة، ربما هذا الانتباه والانشغال منها لما يحيط بها والدهشة لِما تراه جديدا عليها في حياتها قد أزال عنها الاستغراق في الهموم والأحزان نسبيا، وسرعان ما تتعايش سناء وتتفاعل وتتزاحم بين الناس وتبتسم لمواقف تحدث بالقطار، وتستمع إلى شكاوى الناس من حولها وتتأمل في أشكالهم وصورهم وهيئتهم ولبسهم، وتستمع إلى حديث البعض عن الاحتلال والهزيمة ومعاناتهم في الحروب السابقة وخصوصا العدوان الثلاثي في حرب 1956، ووجدت أن ما في داخل نفوس الناس من حولها لا يختلف عما تشعر به، وأن البلد نفسها تعاني معاناة أكبر، فحصل

عندها وَنَس بذلك وظلت هكذا طوال رحلتها العشوائية، كل حين تدس يدها في حقيبتها لتخرج كسرات الخبز وبعض الكعك لتأكل منها وتطعم الأطفال معها، بين الركاب من يقدم لها العصائر أو الشاي إذ علموا بأنها مسافرة وحدها بطفلين دون زوج أو أب أو أخ يصاحبها، سيما السفر طويل في ذلك الواقع المتقلب والغير آمن، كانت تتعلل بأن لها زوجا يعمل بالإسكندرية وهي ذاهبة إليه، وأنه ليس لديه وقتا للمجيء لأخذهم.، ولما وصل القطار إلى محطة الإسكندرية اندفعت سناء وسط الزحام بطفليها إلى عالم غريب، جلست تنظر حولها في انبهار وغرابة، بينما الأطفال راحوا يزحفون ويمشون الخطى الثقيلة على الرصيف ويلعبون على الأرض النظيفة التي رأوها لأول مرة في حياتهم، وهي خلفهم شاعرة بالخوف والقلق ،تناديهم: تعال يامحمود هنا، ارجع ياولد ياصبري.، ثم جلست بهم عند مدخل المحطة بأسىً شديد لا تعرف أين تذهب بعدما ابتعدَت بقدر ما تمنّت؟!، والآن

تتفجر الأسئلة برأسها عن وماذا بعد ذلك يا سناء!.، كانت تبكي وحيدة وأخذتها مشاعر الغربة والوحشة، وبينما هي كذلك إذ يُلقي لها أحدُهم وسط الزحام في حجرها عملة معدنية تقال لها تعريفة، ترفع رأسها وقد ارتجف قلبها وتتلفت وهي تتساءل مَن فعل هذا!.، وهي تريد إعادة الملاليم إإلى صاحبهالكنها لم تستطع معرفة الشخص وسط الزحام الشديد، ومع وفود الناس إلى المحطة وتدفق آخرين منها إلى الخارج تتغير الوجوه بسرعة البرق، وإذا بشخص آخر يلقي لها عملة يقال لها نِكلة في حجرها، ثم ثالث ورابع وخامس... ، حتى وجدَت بحجرها بعض العملات مختلفة الفئات، ظلت هكذا تشعر بالقلق والاضطراب دون أن تستطيع فعل شيء ولا أن ترد المال لأصحابه، لكنها أيضا كانت تنظر إلى المال وهي لم يكن معها ما تطعم به الأطفال، ما جعل ابتسامة تتولد مرهقة على وجهها، اطمأنت لأجل أطفالها على الأقل، أخذت العملات من حجرها ونهضت

فرِحة بعد حزن و هي تجر طفليها إلى مطعم قريب وجلست على المنضدة وطلبت طعاما، فقد كانت جائعة دونما أن تنتبه لذلك منشغلة بقصتها الأكبر، أدركت جوعها فجأة خصوصا بعد سفر طويل من المنصورة إلى الأسكندرية، كانت رغم أنها صغيرة السن لم تتجاوز العشرين إلا أنها من ثيابها الرثة ولفافة رأسها وحذائها البلاستيكي يوحي بوضاعتها في أعين الناس، وربما كان هذا صمام أمان لها من أي استغلال أو خطر قد تتعرض له، ظلت في مدخل المحطة ثلاثة أيام تجلس جلستها تلك، والأطفال ينامون بحجرها أو جانبها على كرتونة جلبتها من إحدى الدكاكين، ثم بعد عدة ساعات تقوم وقد امتلأ حجرها بالعملات البسيطة الكافية لأن تجلب الطعام لها ولأطفالها، كانت الحمّامات العمومية على رصيف المحطة هي حماماتهم الخاصة، ومدخل المحطة هو سكنهم بالليل والنهار، كانت تتخذ لها ركنا بجوار البوابة وترخي على وجهها لفافة رأسها كي لا يتعرف عليها أحد،

تذهب منه لتعود إليه مرة أخري بعدما ينفد مالها.، وذات نهار جاء إليها رجلٌ خمسينيٌ وتحدث إليها وأخبرها بأنه رئيس عمال نظافة المحطة واسمه عبدالعال وسألها من أين هي ولماذا تجلس هكذا بطفلين منذ ثلاثة أيام؟، خاصة أن طفلين صغيرين معها لا يظهر لهما أب هو أمر مثير للتساؤل والفضول؟!، بالإضافة لجَوٍ خريفي متقلب يشتد برده ليلا، وكالعادة اصطنعت سناء قصة من خيالها لكنها فشلت هذه المرة في الإقناع ولم يصدقها الرجل، وعلم أن وراءها حكاية، فأخبرها الرجل أن جلوسها بمدخل المحطة سيعرضها للمشاكل مع شرطة المحطة إذ أنهم يقبضون على المتسولين، انزعجت سناء من كلامه وانفجرت بالبكاء حين سمعت منه كلمة (متسولين)، كأنها ضُربت على رأسها بفأس فانتبهت مما هي فيه، ألح الرجل عليها أن تخبره خبرها ربما يجد لها سبيلا لكي يساعدها، وهنا قررت تحت وطأة الحيرة والخوف أن تحكي له كل شيء بالتفصيل سيما

اطمأنت لـه ولمسَت فيه طيبـة وشـهامة فحكـت لـه قائلـة: أنـا سناء من المنصـورة، زوجـي كـان يعـاملني بقسوة وتزوجتـه مرغمة وهو يكبرني بالسن، كنت لا أشعر معـه بأمـان ودائمـا أكون خائفة، ولمـا كثرت مشـاكله معي تَّدخل العمدة وأمره بـأن يطلقنـي، شعرت براحـة كـأنني ولـدت مـن جديـد، لكنـي سمعت بأن بعد فترة سوف يعيدني والدي إليه، وخشيت أن يقنـع والـدي بتغيراتـه ويعـده بحسـن معـاملتي فيصـدقه ككـل مـرة، ولـم أجـد غيـر الهروب من القريـة بعيـالي...، فـي تلـك الأثناء يُزاع خطـاب للرئيس جمـال عبد النـاصر فـي الراديو ويسمعه الكل بإنصـات، وكـان الصـبية الـذين يبيعون الحلـوى في القطار متراصين على الرصيف ينتظرون قدوم القطـار، نـادى الرجل علـى أحدهم واشترى منـه للأطفـال بعض قطـع الحلـوى الطريـة، وقـال لسـناء: خليكـي هنـا اوعـي تمشـي، هساعدك بمشكلتك، لو مشيتي البوليس هياخدك.

ولمـا حـان موعـد انتهـاء دوامِ الرجـل فـي العمـل عـاد مقررا

اصطحابها معه إلى بيته، وكان يسكن في منطقة المنشية التي تبعد عن المحطة بثلث ساعة تقريبا، وهي إحدى التقسيمات الأربعة لحي الجمرك وهو من أقدم الأحياء بالإسكندرية وأشهرها.

: أنا أبوك عبد العال يابنتي لا تخافي، أنا موظف هنا بالمحطة، عندى بنت عمرها عشر سنوات واسمها أنيسة، وهي مؤنستي في الحياة بعد استشهاد ابني الكبير الله يتقبله في الشهداء، استشهد بحرب الاستنزاف من ثلاث سنوات، لي أخ وابن عم كذلك استشهدوا في الحروب السابقة بالمناسبة، المهم، أنيسة هتفرح بالولاد جدا.

ابتسمت سناء وزال عنها القلق حين شعرت بصدق الرجل وطيبته،كان الرجل يحمل صبري على يديه وهي تحمل محمود، ركبوا مواصلة للحي الذي يسكن فيه الرجل، وبالفعل أقامت معهم عدة أيام لاقت منهم معاملة طيبة وعوضوها دفء الأسرة، كانت إبنة الرجل _أنيسة_ فرحة

جدا بالأطفال وتلاعبهما ليل نهار، وتذاكر أمامهما ما تتعلمه بالمدرسة حتى راح الأطفال يحاولون تقليدها في مشهد طفولي بريء ومبهج، كانت سناء تستمع بشغف حكايات عبد العال وزوجته نوال عن ريا وسكينة، تلك القصة الشهيرة التي كانت تدور أحداثها في نفس المنطقة وأجوارها.، وأخذت سناء تكثر من الأسئلة عن أفعالهن بالتفصيل وتشعر بالغرابة والإثارة وتنتبه لهما فاغرة فاها، يحكي لها بدوره حكاية خِطاب المنشية الذي كان احتفالا بعيد الجلاء وذلك في 26 أكتوبر عام 1954 ومحاولة اغتيال جمال عبد الناصر من قِبل الجماعات الإسلامية والتي تعرف تاريخيا بحادثة المنشية، وكذلك يحكي لها مشاهد مما تعرضت لها المدينة في الظروف الصعبة وأيام الاحتلال ،ويحكي لها بداية حياته وقت أن تقدم لخطبة زوجته نوال، وعن والده المدرس البسيط الذي كان يتقاضى أقل من ثلاثة جنيهات وقت أن كان الجنيه الذهب الانجليزي يساوي سبعة وتسعين

قرشا ونصف، ويقول: أنا خطبت نوال مراتى وكان سعر الذهب 15 قرشا.

بالطبع يتحسر على تلك الأيام بعد تدهور الحال إلى حد كبير من بعد ثورة يوليو 52 والتي لم ترُق له ويراها خيانة للَملك، كانت سناء تحكي لهم عن معاناتها مع عبد اللطيف وكيف كرهته وكرهت القرية بسببه ولماذا شعرت بالرغبة في الهروب بعيدا، وكانت تحكي لهم بأن العمدة كان يغتصب النساء العاملات عنده وحاول أن يتحرش بها وهي فتاة دون الخامسة عشر، وأنها سمعت امرأة تخبره بأنها حامل منه فضربها وطردها وهددها بالقتل لو لم تُسقط جنينها فاختفت المرأة لا يعرف عنها أهل القرية شيئا من وقتها، كانت حكاياتها ل"عبد العال" وزوجته تجعلهم يشعرون بالاستياء الشديد نحو ما يفعله العُمد والمشايخ بالفلاحين، وعلى الرغم من أن سناء تشعر بالرضا والراحة ببيت عبد العال وزوجته نوال_ خصوصا وهي ترى ولديها في سعادة وهناءة_ إلا

أنها تشعر بالحرج، وأنها تعيش بين أغراب تسكن معهم وتأكل وتشرب بلا مقابل، خصوصا والرجُل موظف بسيط، ويعيشون بشق الأنفس على فتات من الرزق، وكان هذا الشعور يسد عليها لذة أي شيء حتى لو كانت لذة مؤقتة، وبعد طول تفكير قررت بأن تترك البيت و ترحل إلى أي مكان آخر كي تعمل وتعيش معتمدة على نفسها، ورغم محاولات الرجل وامرأته وابنته التي تعلقت بالأطفال واستأنست بهم من وحدة وكانت تبكي لبقاء الأطفال معها إلا أنها كانت مُصرة على الذهاب والرحيل، ومن أسباب إصرار الرجل وامرأته على بقائها معهم هو تعلق أنيسة بالطفلين، وكانوا يخشون عليها الحزن الشديد بعد مفارقة الأطفال لها وبعد أن تعلقت بهم لهذا الحد!.، لكن سناء ما زالت مُصرة على الرحيل وهي أيضا تشعر بالفراق والفقد، فقد أحبتهم في وقت بسيط غير أنها لا يمكن أن تقيم معهم دائما خصوصا هم يسكنون على السطح والمكان لا يسعهم

وتخشى أن تتسبب لهم في أية مشكلة مع أصحاب البيت، ربما لو كان المكان واسعا لأقامت معهم وبحثت لها عن أي عمل واستقرت معهم طيلة الحياة، ومع إصرارها وحين لم يجد عبد العال بُداً من رحيلها إلا دلها على الطريق إلى منطقة من مناطق خط الكورنيش وقال لها:

بهذه المنطقة فرصا كثيرة للعمل خصوصا أيام المصيف، وهي منطقة سياحية تكثر بها التجارة والمحلات، وفى هذا الوقت يجهزون محلاتهم حيث المصيف وتوافد الناس من المحافظات، وهذه المنطقة بها أغراب من كل مكان يعملون هناك، فربما وجدتِ معهم عملا يناسبك.، وربت الرجل على كتفها بأسى وقال لها بحنو تسلل لقلبها فبكت: ارمي حمولك على الله الذي لا يغفل ولا ينام يابنتي.، وقام بتوديعها وأعطاها بعض المال كان في جيبه، كانت ترفضه لولا أنه أقسم عليها، وطلب منها أن تعود إلى بيته بأي وقت تجد فيه أن الحياة والظروف تعاندها، وأن البيتَ بيُتها وهو مفتوح لها

بـأي وقـت شـاءت فيـه العـودة إلـيهم، كـان عبـد العـال يحـاول معرفـة اسـم القريـة التـي منهـا سـناء لكنهـا كانـت تـرفض أن تخبره، وتكتفى بأنها من قرية بالمنصورة فقط، اتجهت سناء بطفليها إلـى المنطقـة التـي دلهـا الرجـل عليهـا وأقامـت بضـعة أيام في إحدى شوارع التجـارة بحـي المنتزه والمليء بالباعـة والمحلات، كانت تساعد البعض فـي أعمـالهم مقابـل المـال أو الطعـام لأطفالهـا، بعـد ذلـك اسـتطاعت أن تعمـل فـي مطعـم ومحل يبيع السمك ويقدمه مطبوخا للزبائن، فكانـت تعمل فـي النظافة ومساعدة الطباخين وكـان هنـاك بالمحـل ركنـا بنهايتـه كانـت تقـيم فيـه هـي وولـديها، فتفـرش علـى الأرض وتنـام محتضـنة طفليهـا بعـدما أذن لهـا صـاحب المحـل بالمبيـت، واستمرت على ذلك شهرا كـاملا، وفـي إحدى الليـالي مـرض طفلها صبري وارتفعت حرارته، فراحت تهتم بأمره وتركت العمـل وخرجـت بالطفـل دون أيـة جـدوى إلـى الأجزخانـة لتجلـب لــه أي دواء، كانــت حــرارة الطفـل مرتفعــة جـدا

وبـالأخص فـي الليـل مـع قلـة حيلتهـا وجهلهـا بمثـل تلـك المواقف، فهي لم تتعرض لها من قبل ولم يكن عندها أي فكرة بأن تذهب لأي مستشفى قريب، وكانت مرتبكة عمياء في دار غربتها لا تفهم ما ينبغي أن تقوم به، وليس لديها أي خبرة تدفعها لفعل شيء، وكل ما قامت به تجاه الولد كان من دافع الانفعال والخوف والغريزة الأمومية فحسب، ظل الطفل مهملا بعجزها وقلة حيلتها حتى ساءت حالتة فأخذت تصرخ بصوت مرتفع مثل أصوات الباعة، واجتمع عليها المارة ليجدوا أن الطفل يلفظ أنفاسه الأخيرة، ومع محاولات البعض من المتطوعين إلا أن الطفل قد مات بالفعل في مشهد مؤسف ومحزن لكل من كانت عنده ذرة من إنسانية، في تلك الحقبة الزمنية كان غالب الناس لهم قصص مع موت ذويهم وأحبابهم فقلّ أن يوجد بيت ليس فيه موت إما بالحروب في داخل البلد أوخارجها، وإما بالمرض، وهذا قد صنع عند الناس نوعا من السلوى والمواساة، لقد تم تجهيز الطفل

بإحدي مساجد المنطقة بعد تدخل البعض وتم دفنه بمقابر الصدقة ،تبدلت حالة سناء النفسية وساءت.. وأصبحت كمجنونة تسكن شوارع المنطقة، وبدأ الناس يروون قصتها، وفي يوم من الأيام جاءها رجل صعيدي يعمل بوابا منذ سنين طويلة ويعيش بمفرده وله زوجة وأولاد بالصعيد بمحافظة قنا، وكان يذهب لزيارتهم كل شهرين أو أكثر، كان في نهاية عقده الرابع، و عرض عليها أن تعيش في حجرة في البدروم بالعمارة التي يعمل بها، كانت نظيفة ورتيبة، مقابل أن تقوم بالعمل في تنظيف الشقق وجلب الطلبات للسكان، لأنه مهتم بعمله في تأجير الشقق المفروشة وهذا يأخذ وقته ويغنيه عن أن يذهب لشراء طلبات للسكان بنفسه، وأيضا حاجتهم لامرأة تساعدهم في النظافة، كان العرض بالنسبة لها يمثل سكنا وعملا تأكل منه، فلم تفكر طويلا بل وافقت على الفور، وهذا بعد موت طفلها بخمسة وعشرين يوما ذاقت فيها الموت بطعم مختلف أشد مرارة مما يعرفه

النـاس الطبيعيـون، وقـد كانـت رغـم حزنهـا إلا أنهـا بـدت متماسـكة كـي لا تضـر بطفلهـا الآخـر، وكأنهـا دخلـت فـي معركـة مـع الحيـاة وقررت أن تفوز فيهـا ،خمسـة وعشـرون يوما في الشارع مروا عليها وعلى طفلها الثاني كـأنهم خمسـة وعشرين سنة، كان الناس يأتون إليها بالطعـام وتكثـر الأسئلة عن حكايتها الأولى ومن أين و...، فترفض أن تجيب، انتقلت إلـى عملهـا وسـكنها الجديـد بحجـرة البـدروم الخاصـة بهـا وبطفلهـا محمـود، وكانـت وقـت العمـل تأخـذه معهـا وكـان السكان يرأفون بها وبطفلها كثيرا وقد أصبحت أحسن حـالا رغم أنها لم تستطع نسيان طفلها المتوفى ،صـغيرها ورفيق رحلتهـا المُـرة الحزينـة ومـع مـرور الأيـام اسـتطاعت أن تتعايش بواقعية، وكانـت سناء تشـعر بـالأمن بقربهـا من العمَ سعيد وما تسبب فيه من استقرار نسبي لها، وكانـت تحكـي لـه موقفـا شـبيها بموقفـه معهـا وهـو موقـف الـريس عبـد العـال، وأخـذت تقـص عليـه طيبـتهم وحسـن عشـرتهم، كـان سـعيد

البواب يطمأن على العمارة بوجودها، وقد خفف عنه ذلك حِملا كان يمنعه من التوسع في عمله كسمسار ووسيط بين المالك والمستأجر، فمع وجود سناء كان يذهب إلى أصدقائه وبلدياته في المناطق المحيطة ويتعاونون مع بعضهم في هذا العمل الذي يغنيهم عن عمل البواب، وكان كثيرا ما يكافئها ببعض المال أو يجلب الطعام وهو عائد لها ولطفلها ويخبرها أنه رزقها الذي ساقه الله إليهم، كان عمل البواب لازما لهم للسكن وهو محل إقامتهم وصفتهم بالمنطقة، والتي لو تركوها لم تكن لهم صفة، لأن المستأجر يأتي للبلد وهو يعرف أن البوابين هم السماسرة غالبا، حتى أصحاب المكاتب يعتمدون على البوابين في الترويج إذ لا غنى عنهم.

في هذا العام كان الناس منشغلين ببطولة كأس الأمم الإفريقية المقامة بمصر وكان عام 1959م، يتجمع الناس على المقاهي والجلوس أمام التلفاز والراديو للمتابعة، فبعضهم يتابع الرياضة والبعض ممن ليسوا منشغلين

بالرياضة يتابعون الأخبار لمعرفة تطورات الأوضاع في الجزائر وبدايات هبوب الثورة ضد الفرنسيين، كذلك الأوضاع في العراق بعد إطاحة الضباط الوطنيين بالملك فيصل الثاني عاهل العراق عام 1958وتحويل النظام إلى جمهوري كما حدث بمصر عام 1952م، وغير تلك الأحداث التي تحوَّل بها العالم العربي في تلك الحقبة الزمنية، ووجدت سناء انشغال الناس مختلفا عن الفلاحين بعزبة الخواجة، وشعرت بشيء من الرفاهية في تلك الحياة وذلك الواقع، خصوصا كان عم سعيد يعود فيخبرها بنتيجة المباراة فتضحك وتخبره أنها لا تفهم شيئا في كرة القدم، فيغير الحكاية ليحكي لها عن الخواجة صاحب العمارة المجاورة لهم، وماذا حدث له ولزوجته لما طرد عبدالناصر اليهود وحجز على أموالهم.

الفصل الثالث عشر

أخذ حسين يسعى باهتمام شديد لمعرفة خبر المرأة التي تشبه سناء من أول يوم قابلها فيه، وكان هذا عام 1976م ،واتخذ وسيلة التقرب من رجب حتى قويت علاقتهما وصار كل منهما يحكي للآخر جوانب من حياته، و حين عرف رجب أن حسين يعمل بالمقاولات وعنده هو ونسيبه المهندس الكبير مكتبا كبيرا، سأله قائلا: من وقت ما رفعوا العمارة اللي بجانبنا حصل شق كبير بالجدار بالشقة عندي.

كان هذا السؤال الذي طرحه رجب يمثل مدخلا عظيما لحسين.

: لابد أولا من تعيين المشكلة ثم أدلك على العلاج السليم يا حاج رجب.

لقد كانت فرصة رائعة لا تعوض لحسين واختصرت عليه تلك الفرصة طريقا طويلا.، وانتقل حسين بصحبة المعلم رجب متجهين إلى الشقة في الموعد المحدد بينهما، وحين وصلا إلى باب العمارة قابلهم شاب في العشرين من عمره على الباب وبيده كراسة وقلم، فيحكي حسين ويقول عن هذا الموقف: وقف هذا الشاب ليصافحنا وكان وجهه بريئا طفوليا، ودَّس رجب يده في جيبه وأخرج نقودا وأعطاه، والتفت إليّ مبتسما وقال: هذا ابني محمود.

وحين وصلنا إلى باب الشقة طرق رجب الباب وكنت واقفا على جانب السُلم كما تعلمت في القرية منذ صغري، رغم أن هناك الكثير من الناس قابلتهم في المدينة لا يعرفون عن تلك الأصول شيئا فربما تفتح الباب فتصطدم بوجه الطارق الذي

يلصق وجهه بالباب مباشرة ..،سمعت رجب يقول لزوجته: الأستاذ حسين معي جاء ليُعَيِّن شق الجدار اللي مبهدل الشقة!

وأخذ ينادي عليَّ: اتفضل ...اتفضل يا هندسة البيت بيتك.، تنحنحتُ ودخلت خلفه، كانت الشقة متوسطة المساحة ومفروشة بسجاد مختلف الألوان ليس فيه شيء من الذوق، والأثاث بسيط كعيشتهم، وقمت بالمعاينة وفهمت السبب وراء حدوث ذلك الشَق، و أخبرته بأن الأمر لا خطورة فيه ،طالما متعلق بمنشأ جديد في الجوار، وأخبرته بكيفية المعالجة الصحيحة، وقفنا في الطرقة وأنا أشرح له بخبرتي في سوق العمل منذ سنوات طويلة، فجأة قال منزعجا: تفضل نشرب حاجه طيب، اتفضل ياريس سامحني نسيت، وهو يشير بيده تجاه المكان الذي يقصده وكان يسبقني بخطوتين، جلسنا على كنبة باتجاه بلكونة مفتوحة كانت ضيقة، كان هوائها رائعا جدا، نسمات محملة برائحة البحر، قلت له: ليت هذه البلكونة متسعة وكافية في مساحتها على الأقل لأن

تضع كرسيين وتربيزة صغيرة وتجلس فيها يا حاج رجب.
،فأجاب قائلا: الحمد لله احنا أحسن من غيرنا يا هندسة، إحنا مش أصحاب أملاك، وِدَا مجرد سكن مناسب لدخلنا، المهم الستر يا باشمهندس.، شعرت وقتها بالحرج وكأنى تكلمت فيما لا شأن لي به.، أخذ ينادي: يا أم محمود، فين الشاي؟، وتمر دقيقتان وتأتي زوجته بالشاي وتضعه على التربيزة ثم ترفع رأسها، نظرت لها عن قرب، وكانت المفاجأة كأن صدمة كهربائية أصابت رأسينا بنفس الوقت، كانت الأوجه تتبدل ألوانها وضاع لونها الحقيقي، صوت رجب كأنه يأتيني من بعيد يقول : دي سناء مراتي، بنت حلال، وِشَّها حلو عليا ، وأبويا الله يرحمه وصاني عليها أكتر ما وصاني على اخواتي وأمي الله يرحمها.

كنت أرتجف وتعرق جبيني ...،سناء....!!

أسرعتْ سناء إلى الداخل في ربكة،وكنت كأني أسمع دقات

قلبها في أذني، وإذا بي حينها أخرج كل مافي جعبتي مضطرا ، فليس هناك وقتا آخر لأضيعه ولا حتى صبرا بعدما بدت الحقيقة واضحة وضوح الشمس، الآن حصحص الحق يامعلم رجب، سناء بنت خالتي من المنصورة بالتحديد قرية الخواجة التابعة لمركز طلخا، وقد تركت القرية من ست عشرة سنة تقريبا بطفليها.، قلت هذا القول دفعة واحدة ورجب ينظر في مفاجأة وحيرة وتوتر، لقد كانت الكلمات كطلقات الرشاش واحدة تلو الأخرى دون ترك فرصة لأي رد فعل، كنت أسمع نشيجها ونحيبها بالداخل، نادى رجب عليها وقد أصابه ما يشبه الوَهن، انخفض صوته ومالت رأسه لأسفل قليلا وأخذ يعض على شفتيه،وبعد دقائق تعود سناء وهي تجر الخطى كطفل يمشي لأول مرة وترتعش أطرافها وترتعد فرائصها، تنظر نظرات شاحبة من تحت لتحت، دموعها تسيل على خديها ساحبة روحها لتسيل معها، وكأن الشق الذي في الجدار انتقل إلى قلبها، اللقاء لا يوصف

لأول مرة منذ آخر مرة مذ كانت ابنة السابعة عشر ، أتذكر حين كانت تعترف لي بحبها وقد خذلتها، ملامحها لا زالت مع بعض تغيرات السنين التي نُقِشت على وجهها، أما رجب فقد استسلم للحقيقة ويئس من أي محاولة لإخفائها، بدت الأمور واضحة كوضوح الشمس، يبتلع ريقه وكأنه يبتلع الشوك والحنظل معا فربما بسبب خوفه من مجهول لا يعرفه، ربما خمن بأنه سيكون مسئولا عن شيء يجلب له المتاعب، أخذتُ أطمئنه حتى هدأ وأخذ يحكي لي تفاصيل القصة منذ مجيئها إلى الأسكندرية عام 1959 م وماحدث معها ومساعدة والده سعيد لها،وأنه تَزوجها برغبة والده ليسترها ويكون لها أنساً منذ سنين طويلة وبالتالي نفذ رغبة والده وتزوجها وأنجب منها، قال لي: أنا أحبها جدا يابشمهندس، وما فعلت لها غير كل خير ومش هتبعد عني لو كلفني حياتي، فهي أم أولادي.

في تلك اللحظة حين ذكرَ الأولاد تذكرتُ أطفال عبد

اللطيف، سألتها أين الطفلين محمود وصبرى؟

أجابني رجب لأنها لم تستطع الإجابة فقد كانت تبكي بشدة ولا تكف عن البكاء، وأخبرني بأن الشاب الذي قابلنا على باب العمارة هو محمود ابنها.، وكان السؤال اللاحق :وأين الولد الثاني صبرى؟

قالت: مات في أول شهر جئنا فيه هنا، مات واستراح وليتنا كنا جميعا مثله. وراحت تلطم خديها فحتضنها رجب وأخذ يهدئها بحنو شديد.، في هذا الوقت حاولت تهدئتها ووضعت يدي على كتفها وقلت لها: لا تخافي من شيء أبدا يابنت خالتي، وسأكون بجانبك ولن يحدث لك أي شيء تخافين حدوثه، ستظلين في حياتك مع هذا الرجل الشهم المحترم مثل والده، لكن يا سناء ليه ما فكرتي في أبوك وأمك؟!، لا أقول لك أنك حَرَمتي رجلا من طفليه حتى أصبَح كمجنون بالقرية، يا سناء ليس هناك أي مبرر لكل ما فعلتيه، وكان

من الممكن أن تُحل الأمور بشكل أفضل،كان ممكن تعيشي لوحدك وتتجوزي تاني.

كانت تحدق في، لا أعرف بأي شيء كانت تفكر حين تلك النظرات، ثم قالت: لم تكن هناك أي فرصة للاختيار يابن خالتي، ليتني مثلك جريئة في القرار، الفرق بيني وبينك يابنت خالتي انك اخترت بقتل مشاعر اللي أحبتك وتعست في حياتها، إنما أنا ما عرفت كيف يكون الاختيار لأني امرأة، وأجبرت على كل شيء، عدم تعليمي، على الحب بدون فائدة ولا نتيجة، على الزواج برجل مريض نفسيا، حتى لم يكن بوسعي اختيار أن أكون كما أنا، أو لا أختار وأعيش لأولادي بعد تجربة، لكن أبويا وامي الله يسامحهم كانوا مُصرين إنهم يعذبوني ويرجعوني بعد طلاقي لعبداللطيف، لذلك كرهت كل شيء وانعدمت رغبتي في أي شيء، كنت أعيش الموت حرفيا (صمت) ثم نظرت إليّ وسيول من الدموع على وجهها وقالت: بعد كل هذا تقول

اختار يا...،يا حسين؟! اللي اخترته زمان كان حلم مستحيل، وكانت هي الفرصة الوحيدة للاختيار، لكن ما علينا يابن خالتي، "الكلام في الفاضي نقصان عقل"..!

وصلتني تلميحاتها، وصلت كلماتها إلى الهدف مباشرة، رجب يستمع للحديث كأنه قد أصابه الخرس، وبالطبع لم يكن يعرف عن حب سناء القديم لي وإلا لم يكن الموقف يحتمل كلمة إضافية.، وفي هذا التوقيت يدخل أولادها من رجب فطلب منهما الدخول لحجرتيهما بعيدا عن الموقف الذي جاء بلا موعد كالموت المفرق للجماعات والهادم للذات، كان الموقف مُلغما بالمفاجآت والمشاهد، سناء كانت جالسة قبالة وجهي تنظر إليَّ نظرة ليست عادية فهمتُ منها الكثير والكثير، ووصلتني كل المعاني والكلمات التي كانت بخاطرها، ظهرت لي في تلك النظرة المليئة بالاتهام والتوبيخ، نظرة حب قديم دفن تحت التراب فغمره المطر حتي صار وحلا وطينا لطخت به حياتها.، ثم بعد جلسة

طويلـة كثـرت فيهـا الأسـئلة بيننـا، شـعرت سـناء بالهـدوء والاطمئنان بعض الشيء بعدما وضـحت الرؤيـا بشـأن القـادم بالنسبة لها وكيف ستسير الأمور، حينها خرجْتُ من عندهم كمن كان يحلم واستيقظ للتو من منامه الغريب، ثم أجمعت أمـري أن أزور القريـة لأطمـئن علـى أهلـي وأخبـر عمهـا سليمان بالقصة ربما نجد حلا للموضوع.

.....

وفـي غضـون يـومين سـافرت متجهـا إلـي المنصـورة، إلـى عزبة الخواجة، وحين أخبرت شيخ الخفر سليمان رد ببرود:

إذا كـان علـى عبد اللطيف فعيالـه الاثنين موتى بالنسبة لـه، وكونك تخبره فجأة بأن أحدهما حي يرزق وأصبح رجلا، فسوف ينشغل بخبر موت الثاني ويتذكره، هل باستطاعتك ياحسين أن ترده إليه في اللحظة التي يطلب منك ابنه ليعود إليه؟، قلت لـه: وكيف نعيد لـه ولده الذي يعرف أن أباه قد

مات منذ صغره وقد تعلق برجب الذي كان يحل محل والده ويمنحه حنانا أبويا عوضه عن فقد الأب؟.

بصراحة كانت المهام كلها صعبة من جميع الاتجاهات، ولم يكن سليمان متفاجئا بل كان متماسكا لحد عجيب حتى ظننت أنه كان يعرف القصة من قبلي، لقد طلب مني ألا أخبر أحدا بالخبر، وحينها وليته أمر إخبار عبداللطيف خصوصا هو شيخ الخفر بالقرية وهو أدرى بما عنده وما يحدث، وأنا صرت كالغريب عن عزبة الخواجة، أما أنا فقد أوليت نفسي بما عندي في الأسكندرية وما يشغلني، فعندنا في تلك الأثناء مشروعا ضخما سوف يأخذ منا كل وقت وجهد، المشروع بدولة عربية عن طريق مكتب هندسي كنا نتعامل معه من قبل في المملكة وبيننا تواصل وصداقة، وقد أشاروا علينا مشاركتهم في هذا المشروع وأغلب الظنون أننا سنوافق، فالوقت الذي اقتطعته من مشاغلي الكثيرة في تلك الفترة لأزور القرية كان بصعوبة بالغة، ثم ما كان من سليمان أنه

قد أخفى الخبر عن عبد اللطيف، ثم عندما شعر بأنه سيموت في مرضه طلب عبداللطيف ليخبره لكنه كان يرفض زيارته، فاضطر لأن يخبر الشيخ ربيع وأولاه تلك المهمة، كنت بالفعل قد سافرت لدولة الكويت أنا و هشام وزوجتي وعيالي ما جعلني أنقطع عن الأخبار بشكل كبير، واطمأننت لكون عم سناء عرف القصة، وانشغلنا بمشاريعنا هناك ونسيت الموضوع برمته، وكانت المفاجأة بالنسبة لي بعد ذلك تحديدا بعد سنة من سفري أن رجب أخذ زوجته سناء وعياله وعاد إلى الصعيد، ولم نكن نعرف أي شيء عن مكانه، وقد أخبرتُ عائلتي بكل ما حدث ذات مرة في إحدى اتصالاتي بهم من خلال هاتف منزل زوج أختي، لما سألتهم: هل عادت سناء أو ولدها لأبيه.

كانت المفاجأة أنهم اخبروني بأنهم لم يعرفوا شيئا عن هذا، وأن سليمان قد مات منذ شهر تقريبا.، وهو الذي طلب مني ألا أخبر أحدا لكي يستطيع ترتيب الأمور بتأني، وقد فعلت

ذلـك وتركـت الأمـر لـه، فهـو عمهـا، وسـافرت وأسـرتي وانشـغلت،ثم هـا نحـن بعـد أربـع سـنوات تجـددت فيهـا قصـة سناء على ألسنة أهالي عزبة الخواجة وفـي رأس عبداللطيف الذي راح يجوب الإسكندرية طولا وعرضا بحثا عن ابنه لكن بلا جدوى، بدأت القصة بداية جديدة بعد عشرين سنة، في تلك السنوات الأربع كان عبداللطيف لا يفتأ يذكر ابنه الذي أيقن بوجوده، لكنه لا يعرف كيف يصل إليه؟!، كان كل شيء يسير في طريقه المحتوم بجموح، تتنقل بالناس أحداث الزمان وتقلباته، وتتقلب عقارب الساعات وتحصي الأيام والليالي ما بين متعايش بصبر لا يجد غيره بديلا، وبين آخرين وجدوا أنفسهم في خضم أحداث لا دخل لهم بها، أقحمتهم فيها الظروف، والناس مع بوصلة الزمن يتحركون، وفي حياتهم اليومية وعلاقاتهم يمضون، ومهما كبروا في السن وانقضت أجمل سنين حياتهم وارتخت منهم الأجفان وضعفت الأبدان، إلا أنهم يأخذون في الحياة بمعاولهم

يهدمونها كي تنقضي بقوة تجاه العالم الآخر رغما عنهم، حتى وإن تعلقوا بالماضى وحزنوا لأجله وعلى ما فاتهم.

.....

: الموضوع يا فريال ليس خاضعا بشكل كبير للمنطق، بل الغريزة والرغبة السيئة في الاستحواذ على الشيء وعدم فقدانه وهو بين يديه حتى لو لم يكن حقه، أما بعد موته فهو لن يشعر بفقدانه، سواء آلَ لأهله أو للص أو لأصحابه!!

:وماذا سوف تفعل الآن؟

: شيخ البلد يظن بأنني أستطيع بسهولة معرفة مكانها، أو ربما يظن بأنني سأترك ما ورائي كله لخوض رحلة البحث عن سناء في كل البلدان!، المشكلة هي أن سناء خافت أن تفقد ابنها محمود ولذلك بشكل كبير هي التي لعبت برأس زوجها لكي يأخذهم إلى الصعيد،ولأنه يخشى هو الآخر من فقدانها فقد نفذ مرادها،خصوصا هو بالأسكندرية لا يملك

شيئا سوى العمل، لكن لو وجدتُ بـأن فـي إمكـاني شيئا أفعلـه لن أتخاذل عن القيام به.

تمت

ومع لقاء جديد في الجزء الثاني ورحلة العودة.

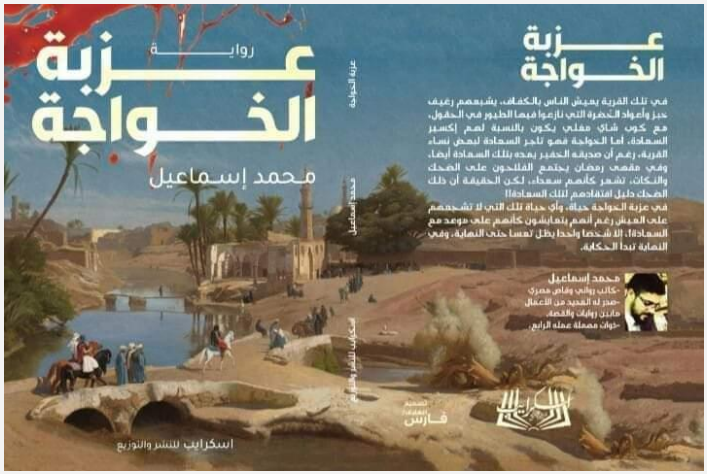

محمد إسماعيل الشريف

كاتب قصصي وروائي مصري مواليد عام 1983.

هذه الرواية (عزبة الخواجة) هي عمله الثالث بعد:

روايــة (وســقطت أوراق شــجرة الكــافور) عــن مركــز الحضارة العربية 2017

ومجموعـة قصصـية بعنـوان (مشـاعر شـتاء) عـن المكتبـة العربية للنشر والتوزيع 2018

وله رواية (ذوات مهملة) عن دار سكرايب معرض القاهرة الدولى للكتاب 2021

لـه أعمـال قصصـية ومقـالات نشـرت إلكترونيـا فـي مواقـع وجرائد وفي كتب قصصية مجمعة مثل كتاب داستان بقصـة (ضجيج تكات الساعة) الصادر عن دار يافي للنشر 2019

وكتـاب خبـز تحـت الحصـار بقصـة (نسـاء تهـوي الـدراما) الصادر عن دار سكرايب2019.

قيد النشر رواية (أسرى غرف الضباب)

وكتاب نصوص أدبية بعنوان (شطحات وذكريات)

ورواية بعنوان (طاحونة النمل)

وأعمال أخرى قيد الكتابة.

تليفون / 01093521123

تليفون/ 01289553251